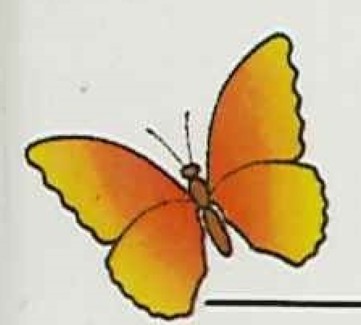
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

جين إير

القِصص العالميّة ٢٤. جين إير

مكتبة لبنان ناشرون



كتب الفراشة

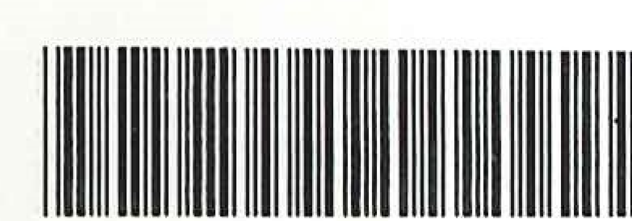
القِصص العالميّة ٢٤. جين إير

في هذه الرواية للكاتبة الإنكليزيّة الشهيرة شارلوت برونتي نتابع مراحل حياة بطلتها جين إير، في بيت خالها المُتوفّى حيث عانت من قسوة زوجته وأولاده، ثمّ في المدرسة الداخليّة حيث كابدت متاعب ومشقّات الحياة المدرسيّة، ثمّ في قصر ثورنفيلد حيث عاشت أحداثًا غريبة وغامضة جعلتها تميط اللثام عن سرّ مستر روتشستر.

إنّها قصّة النموّ والانطلاق من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج المستقلّ، وقصّة المعاناة التي تزيد النفس قوّة وصلابة. وهي تُعَدُّ من أعظم روايات الأدب الكلاسيكيّ عبر العصور.



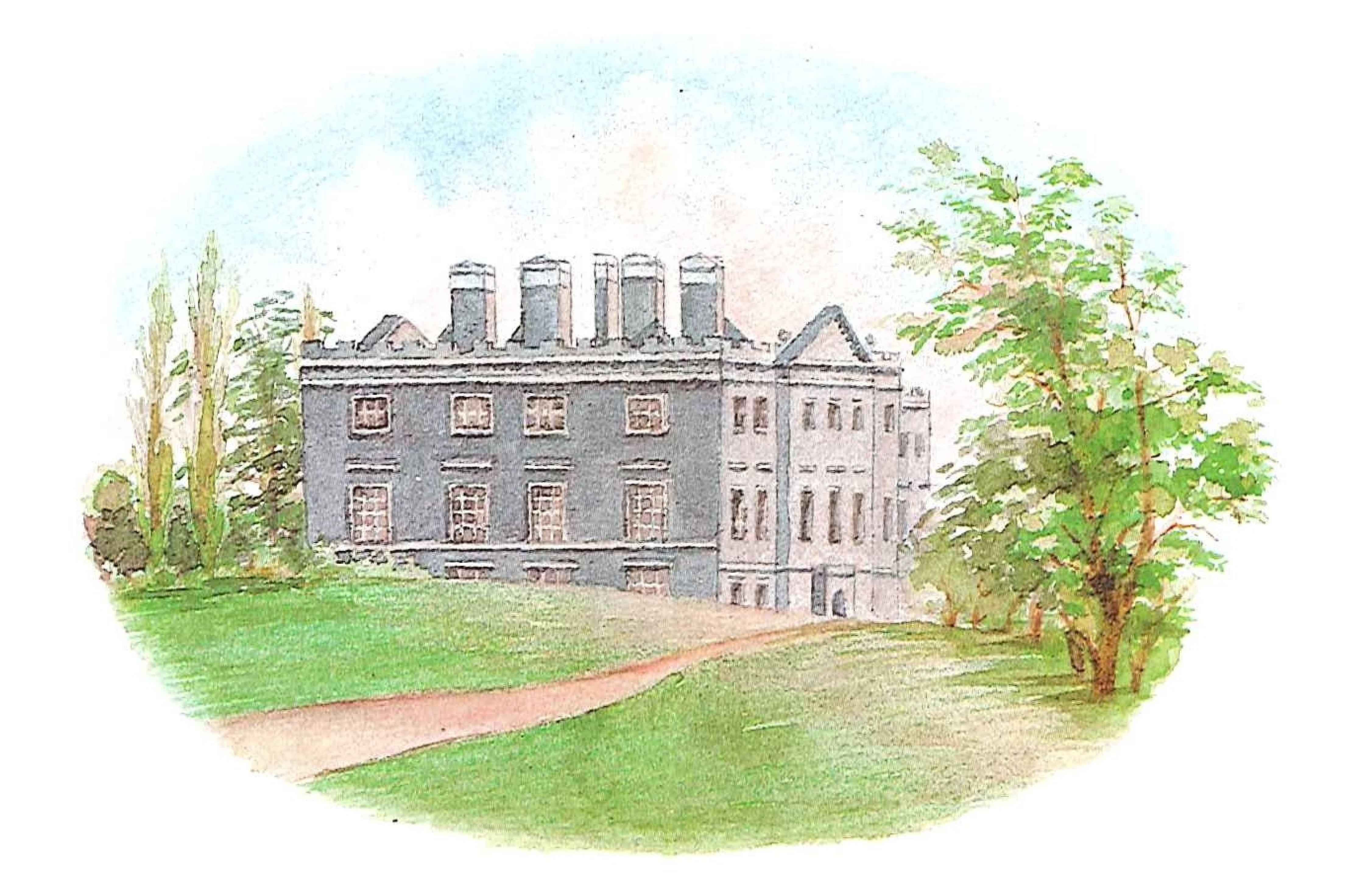
مكتبة لبنان ناشرون



01C196824
JANE EYRE

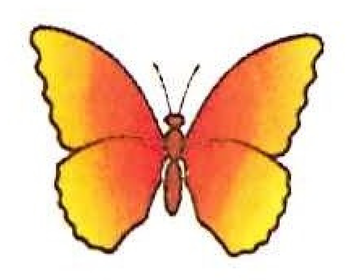
كتب الفراشة - حكايات محبوبة

جِين إير



تأليف : شارلوت برونتي

ترجمة: شوقي رياض السّنورسي



مكتبة لبنان ناشرون

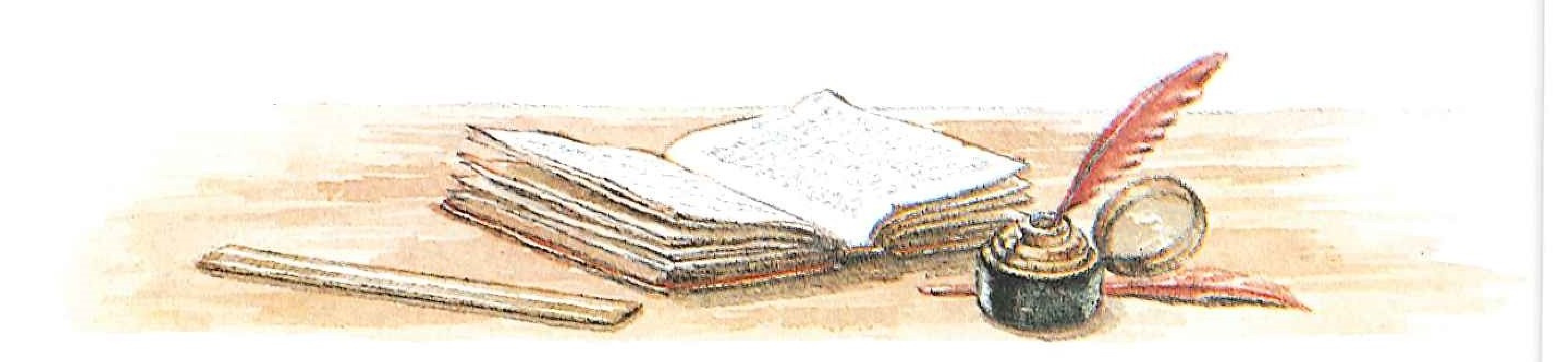
مَكتبة لبنان ناشِرُون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
http://www.librairie-du-liban.com.lb

وُكلاء وَمُوزِّعون في جَميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى: ٢٠٠٠

طُبع في لبنان

رَقم الكتاب: 01C196824



مقدّمة

جين إير هي أولى رِواياتِ شارلوت برونتي الّتي لاقَتْ نَجاحًا مُنْقَطِعَ النَّظير، فَبَعْدَ أنْ نُشِرَتْ في عامِ ١٨٤٧ صَعِدَتْ سَريعًا إلى ذُرْوَةِ الكُتُبِ الأَكْثَرِ مَبيعًا، ثُمَّ ظَلَّتْ واحِدَةً من أَكْثَرِ الرِّواياتِ شَعْبِيَّةً وَرَواجًا في الأَدَبِ الإنْجليزيِّ على الإطْلاقِ. وَهِيَ قِصَّةٌ تَأْسِرُ خَيالَ القارِئِ، كما أَنّها ذاتُ طَبيعَةٍ دراميَّةٍ حَفَزَتِ الكَثيرينَ من مُنْتِجي الأَفْلامِ والمُسَلْسَلاتِ التِّلِفِزْيونيَّةِ على إخْراجِها أو الاقْتِباسِ مِنْها: ذلِكَ أَنّها مُفْعَمَةٌ بِالصُّوَرِ الذِّهْنِيَّةِ والأَحْداثِ الدّراميَّةِ بِنَوْعٍ خاصٍّ، الأَمْرُ الّذي جَعَلَها غايَةً لِمُنْتِجي ومُخْرِجي الشّاشَتَيْنِ الكَبيرَةِ والصَّغيرَةِ.

والكَثيرُ من رِوايَةِ **جين إير** مَأْخوذٌ مِن قِصَّةِ حَياةِ شارلوت برونتي نَفْسِها. فَمِثْلُ جين - بَطَلَةِ القِصَّةِ - كانت شارلوت فَتاةً بَسيطَةً وواضِحَةً، كما أَنّها كانت يَتيمَةَ الأُمِّ. وكانت أَيْضًا مُتَفَوِّقَةً جِدًّا في الدِّراسَةِ، ولقد حاوَلَتْ بَعدَ ذلِكَ أن تَكْسِبَ عَيْشَها من عَمَلِها كَمُرَبِّيَةِ أَطْفالٍ. ويَتَطابَقُ وَصْفُ شارلوت برونتي لِحَياةِ بَطَلَةِ قِصَّتِها جين في مَدْرَسَةِ لوود مع تَجْرِبَتِها الخاصَّةِ التَّعِسَةِ. ففي سِنِّ الثّامِنَةِ بَعَثوا بِشارلوت بَعيدًا إلى المَدْرَسَةِ. كانت حِينَئِذٍ في قِمَّةِ التَّعاسَةِ، ولكِنَّها لم تَعُدْ إلى البَيْتِ إلّا عِنْدَما ماتَتْ أُخْتاها - اللَّتانِ تَكْبُرانِها - بداءِ الدَّرَنِ. وفي رِوايَةِ «**جين إير**» نَلْمَحُ نَقْدَ شارلوت برونتي الحادَّ لِمَتاعِبِ ومَشَقّاتِ الحَياةِ المَدْرَسِيَّةِ في بَعْضِ المَدارِسِ آنَذاكَ.

كانت شارلوت برونتي شَديدَةَ الاهْتِمامِ بِإبْرازِ دَوْرِ المَرْأَةِ في المُجْتَمَعِ الڤِكْتوريِّ ، نِسْبَةً إلى المَلِكَةِ ڤكتوريا في القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ ، ففي تلك الحِقْبَةِ مِنَ الزَّمانِ كان يُنْظَرُ إلى النِّساءِ على أَنَّهُنَّ لا يَصْلُحْنَ إلّا لِلزَّواجِ . ولكنّ جين – في قِصَّتِنا هذه – شَأْنُها في ذلِكَ شَأْنُ شارلوت نَفْسِها في مُعْتَرَكِ الحَياةِ – سَعَتْ جاهِدَةً لكي تُؤَكِّدَ اسْتِقْلالَها الذّاتِيَّ ، وكانت وَسيلَتُها إلى ذلِكَ أنْ قَبِلَتِ العَمَلَ كَمُرَبِّيَةِ أَطْفالٍ ، وكابَدَتْ من خِلالِهِ مَشاقَّ جَمَّةً لَصيقَةً بهذه الوَظيفَةِ الّتي لا تُرْضي غُرورَ السَّيِّداتِ ، وإنْ كانت لا تَصِلُ إلى مُسْتَوى وظائِفِ الخَدَمِ بِحالٍ . وقِصَّةُ « **جين إير** » هي إحْدى قِصَصِ النُّمُوِّ والانْطِلاقِ من مَرْحَلَةِ الطُّفولَةِ إلى مَرْحَلَةِ النُّضْجِ المُسْتَقِلِّ ، والمُشارَكَةِ في الحُبِّ على قَدَمِ المُساواةِ . وهي تُقاسي مُنْذُ بَدْءِ القِصَّةِ حَتّى مُنْتَهاها : تُقاسي في بَيْتِ خالِها المُتَوَفّى مستر ريد من قَسْوَةِ زَوْجَتِهِ وفَظاظَةِ أَوْلادِهِ ، وتُقاسي خِلالَ الدِّراسَةِ في لوود ، وتُقاسي حينَ تُميطُ اللِّثامَ عن سِرِّ مستر روتشستر . غَيْرَ أنّ جين مُحارِبَةٌ صَلْدَةٌ لا تَسْتَسْلِمُ أَبَدًا إلى مَشاعِرِ الرِّثاءِ لِلنَّفْسِ . وهي تَزْدادُ قُوَّةً من خِلالِ المُعاناةِ إلى أنْ يَنْتَهِيَ بها المَطافُ في خِتامِ الرِّوايَةِ إلى اسْتِشْعارِ السَّعادَةِ الكامِلَةِ في زَواجٍ أَضْحَتْ هي فيه صاحِبَةَ القَرارِ ، بل ومَلاكَ النَّجْدَةِ ، بعد أنْ أَصابَ العَمى حَبيبَها وزَوْجَها المُرْتَقَبَ : مستر روتشستر .

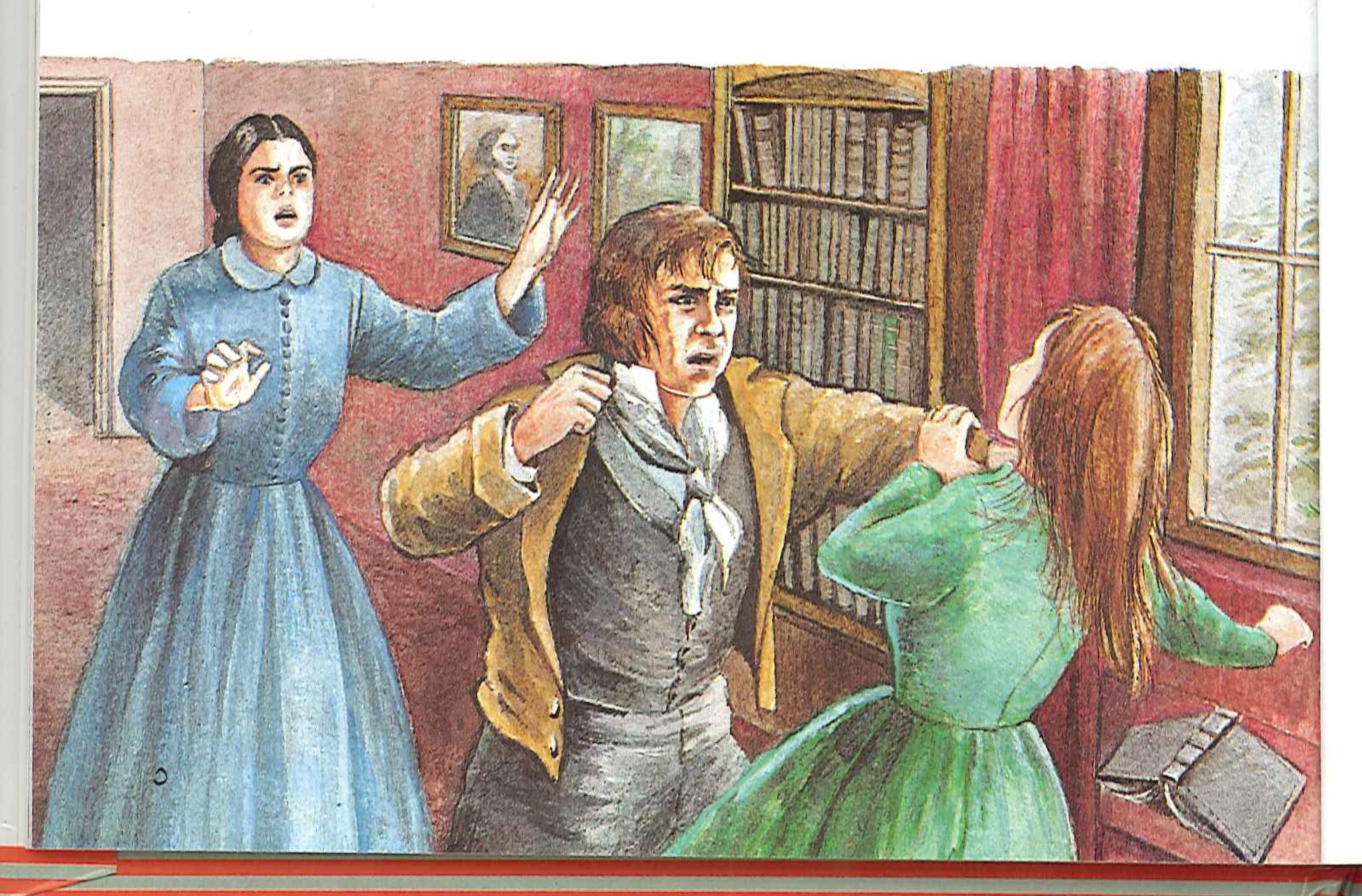
ومع أَنَّنا نَسْتَطيعُ أنْ نَلْمُسَ في رِوايَةِ « جين إير » عَناصِرَ كِتابَةِ السّيرَةِ الذّاتِيَّةِ نَفْسَها ، فإنَّها تُعَدُّ عَمَلًا رِوائِيًّا أَدَبِيًّا يَمُتُّ بِصِلَةٍ وَثيقَةٍ إلى الخَيالِ القَصَصِيِّ : ذلِكَ أنّ شارلوت برونتي كانت تَسْتَوْحي خَيالَها بالفِعْلِ عِنْدَ الكِتابَةِ ، كما كانت تَجِدُ مُتْعَةً كَبيرَةً في تَرْكِ القارِئِ مُعَلَّقًا بِحِبالِ الحَيْرَةِ ، لا يَمْلِكُ سِوى التَّخْمينِ لاسْتِجْلاءِ غَوامِضِ وأَسْرارِ جريس بوول وما يَجْري من أَحْداثٍ لَيْلِيَّةٍ غَريبَةٍ في ثورنفيلد . ومع أنّ الزَّوْجَةَ المُخْتَلَّةَ العَقْلِ ، الحَبيسَةَ في مَكانٍ ما ، هي شَخْصِيَّةٌ شائِعَةٌ مَطْروقَةٌ في قِصَصِ الرُّعْبِ ، إلّا أنّ الرِّوايَةَ تَنْطَوي على ما هو أَبْعَدُ من ذلِكَ . إنّها أَكْثَرُ من قِصَّةٍ من قِصَصِ المُغامَراتِ الّتي تَتَعَلَّقُ بها أَنْفاسُ القارِئِ ، فهي تَتَصَدّى لِقَضايا أَخْلاقِيَّةٍ هامَّةٍ بَيْنَما هي تَرْوي لنا – في نَفْسِ الوَقْتِ – قِصَّةَ حَياةِ البَطَلَةِ بإيمانٍ وَطيدٍ ومَشاعِرَ حَميمَةٍ صادِقَةٍ . إنّ ما نُحِسُّهُ في رِوايَةِ « **جين إير** » من تَفَهُّمٍ عاطِفِيٍّ عَميقٍ لِلإنْسانِ في مُخْتَلِفِ حالاتِهِ ، ومن غِنًى وثَراءٍ في وَصْفِ الشَّخْصِيّاتِ وتَصْويرِها ، يَجْعَلُها – بِلا جِدالٍ – واحِدَةً من أَبْدَعِ رِواياتِ الأَدَبِ الإنجليزِيِّ عَبْرَ العُصورِ .

جين إير

في عام ١٨١٨ ، وعِنْدَما كُنْتُ في الثانِيَةِ من عُمْري ، تُوُفِّيَ والِدايَ ، فأَخَذَني خالي مستر ريد لِأَعيشَ مع أُسْرَتِهِ في جيتسهيد . ولِلأَسَفِ ماتَ هذا الخالُ بعد بِضْعِ سَنَواتٍ ، فاسْتَبْقَتْني زَوْجَتُهُ لِأَعيشَ في البَيْتِ مع أَبْنائِها الثَّلاثَةِ : إليزا وجون وجورجيانا . وكان هَؤلاءِ الأَبْناءُ يُشْعِرونَني دائِمًا بأنّني قَريبَةٌ فَقيرَةٌ فَرَضَتْ عليهم الأَقْدارُ تَحَمُّلَ عِبْئِها . كانوا لا يُشارِكونَني اللَّعِبَ ، ويَتْرُكونَني لِأُسَلِّيَ نَفْسي بِنَفْسي .

عندما بَلَغْتُ العاشِرَةَ مِنَ العُمْرِ ، كُنْتُ أَجْلِسُ – ذاتَ يَوْمٍ – إلى جِوارِ النّافِذَةِ وأُطالِعُ كِتابًا في هُدوءٍ ، حينَ اقْتَحَمَ الحُجْرَةَ ابنُ خالي جون – وكان حينَذاكَ فَتًى يافِعًا – وانْدَفَعَ نَحْوي قائِلًا : « بِأَيِّ حَقٍّ تَقْرَئينَ كُتُبَنا ؟ » .

أَتْبَعَ ذلِكَ بِقَذْفِ كِتابٍ في وَجْهي ، ثُمَّ شَدِّ شَعْري ، فَصِحْتُ في وَجْهِهِ ، وأَخَذْتُ أُجاهِدُ لِلتَّمَلُّصِ من بَيْنِ يَدَيْهِ . وما إن سَمِعَتْ مسز ريد صَوْتَ العِراكِ حَتّى انْدَفَعَتْ إلى داخِلِ الحُجْرَةِ واتَّخَذَتْ جانِبَ وَلَدِها في الحالِ ، ثُمَّ أَمَرَتِ المُرَبِّيَةَ بِحَبْسي في الغُرْفَةِ الحَمْراءِ ، فسارَعَتِ الأَخيرَةُ وحَمَلَتْني قَسْرًا إلى الدَّوْرِ العُلْوِيِّ بِمُعاوَنَةِ أَحَدِ الخَدَمِ . ودُفِعَ بي إلى داخِلِ الحُجْرَةِ ، وتُرِكْتُ بها حَبيسَةً مُنْفَرِدَةً .



كانتِ الغُرْفَةُ الحَمْراءُ فَسيحَةً رَطْبَةً ، كما كان يَلُفُّها السُّكونُ المُطْبَقُ . وسُرْعانَ ما غَرَبَتْ شَمْسُ ذلِكَ اليَوْمِ وأَلْفَيْتُ نَفْسي وَحيدَةً في الظَّلامِ دونَما شَمْعَةٍ تُبَدِّدُ وَحْشَةَ المَكانِ . وكادَ قَلْبي أن يَتَوَقَّفَ عن الخَفْقِ عِنْدَما لاحَ أمامي طَيْفٌ ضَوْئِيٌّ فَوْقَ جِدارِ الحُجْرَةِ . وتَصاعَدَ الطَّيْفُ إلى أَعْلى ثُمَّ أَخَذَ يَتَراقَصُ على سَقْفِ المَكانِ . وحاوَلْتُ جاهِدَةً إقْناعَ نَفْسي بأنَّهُ ضَوْءٌ يَنْبَعِثُ من مِصْباحٍ يَحْمِلُهُ أَحَدُ الخَدَمِ في الحَديقَةِ ولكنْ عَبَثًا حاوَلْتُ ، فَقَدِ اسْتَقَرَّ في أَعْماقي أنّه شَبَحٌ . عِنْدَئِذٍ اجْتاحَني رُعْبٌ هائِلٌ ، فأَخَذْتُ أَصْرُخُ بِصَوْتٍ عالٍ وأَدُقُّ البابَ بِعُنْفٍ شَديدٍ .

وعِنْدَما أَتَتْ بِسي وفَتَحَتِ البابَ ، قَبَضْتُ على يَدِها وأنا أَبْكي قائِلَةً : « خُذيني إلى الخارِجِ بِحَقِّ السَّماءِ ... أَتَوَسَّلُ إليكِ ... في هذه الغُرْفَةِ شَبَحٌ » .

وقَدِمَتْ مسز ريد صائِحَةً في غَضَبٍ : « لماذا فُتِحَ هذا البابُ ؟ »

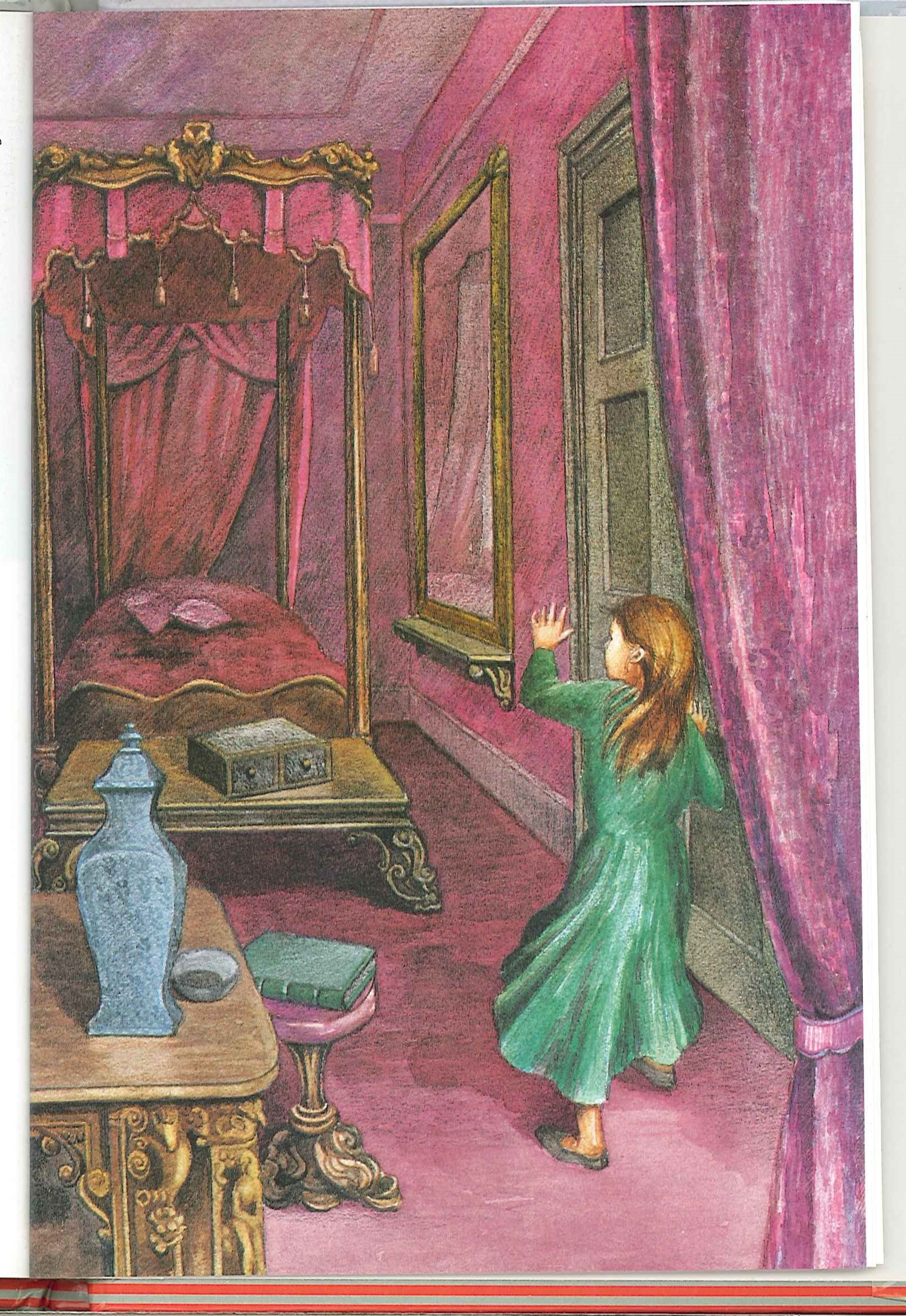
أَسْرَعَتْ بِسي بالقَوْلِ : « كانَتِ الآنِسَةُ جين تَصْرُخُ بِشِدَّةٍ . »

فأَرْدَفَتْ مسز ريد : « أَحَقًّا فَعَلَتْ ؟ إنّها مُجَرَّدُ حيلَةٍ لِتَفْلِتَ من مَحْبِسِها ... أَعيدوها إلى الدّاخِلِ في الحالِ . »

دُفِعَ بي ثانِيَةً إلى أَحَدِ أَرْكانِ الحُجْرَةِ الّتي أُحْكِمَ رِتاجُها مَرَّةً أُخْرى . ولم أُحِسَّ شَيْئًا آخَرَ ، فقد فَقَدْتُ الوَعْيَ .

غَيْرَ أنَّني لم أَلْبَثْ أنْ أَفَقْتُ في فِراشي بَعْدَ أنْ أُعْتِقْتُ من الغُرْفَةِ الحَمْراءِ . وكان هُناكَ وَهَجٌ بَهيجٌ يَنْبَعِثُ من نيرانِ المِدْفَأَةِ الّتي في حُجْرَةِ الأَطْفالِ ، فَوَقَعَ بَصَري على بِسي وَهِيَ تَتَحَدَّثُ إلى رَجُلٍ غَريبٍ يَقِفُ إلى جِوارِ سَريري . وشَعَرْتُ بالطُّمَأْنينَةِ حينَ أَدْرَكْتُ أنّه من غَيْرِ سُكّانِ المَنْزِلِ .

عَرَفْتُ أنّ اسْمَ الرَّجُلِ مستر لويد وأنّه صَيْدَلِيٌّ من أَبْناءِ النّاحِيَةِ يُداوي بالأَعْشابِ والمُسْتَحْضَراتِ الطِّبِّيَّةِ المُخْتَلِفَةِ ، فأَخْبَرْتُهُ بما وَقَعَ لي ، وبِأَسْبابِ حُزْني وكَرْبي . وبَدَأَ الرَّجُلُ بِلَوْمي - في رِقَّةٍ ولُطْفٍ - لِخَوْفي مِنَ الأَشْباحِ ، غَيْرَ أنَّني سُرْعانَ ما أَحْسَسْتُ بِتَعاطُفِهِ معي واهْتِمامِهِ بِأَمْري . ولم يَلْبَثْ أنْ سَأَلَني ما إذا كُنْتُ أُوافِقُ على الذَّهابِ إلى مَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ ، فأَجَبْتُ بأنَّني أُرَحِّبُ جِدًّا بذلِكَ . عِنْدَئِذٍ هَبَطَ إلى الدَّوْرِ الأَرْضِيِّ لِيَتَباحَثَ في الأَمْرِ مع مسز ريد .





كانَ التَّفْكيرُ في احْتِمالِ تَرْكي لِعائِلَةِ ريد ورَحيلي إلى مَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ يُفْعِمُ قَلْبي بالغِبْطَةِ والسُّرورِ ، فاسْتَعادَتْ صِحَّتي بِسُرْعَةٍ مَلْحوظَةٍ – غَيْرَ أنّ أسابيعَ كَثيرَةً مَرَّتْ دونَ أنْ يُذْكَرَ أَمامي شَيْءٌ عن هذا الأمرِ ، فَظَنَنْتُ أنّهُ قد نُسِيَ تَمامًا . ولكنْ حَدَثَ أنْ أَخْبَرَتْني بِسي ، في أَحَدِ أيّامِ شَهْرِ يَنايِر ، بأنّ رَبَّةَ البَيْتِ تُريدُ مُقابَلَتي في غُرْفَةِ الإفْطارِ . وهُناكَ وَجَدْتُ زَوْجَةَ خالي جالِسَةً مع رَجُلٍ يُدْعَى مستر بروكِلْهرسْت ، قالَتْ إنّهُ صاحِبُ مَدْرَسَةٍ في بَلْدَةِ لووُد . وبدا واضحًا أنّهُمْ قَرَّروا إرسالي إلى تلك المدْرَسَةِ .

في ذاتِ يَوْمٍ من شَهْرِ يناير عامَ ١٨٢٦ ، رَحَلْتُ بِالعَرَبَةِ في الصَّباحِ الباكِرِ إلى لووُد . وفي اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ ، أَخْبَرَتْني مسز ريد أنْ لا داعِيَ لإيقاظِها ، أو إيقاظِ أَحَدٍ من أَبْنائِها ، لِتَوْديعِهِم عِنْدَ السَّفَرِ . وكُنْتُ جِدَّ سَعيدَةٍ بذلِكَ ، فلم أكُنْ راغِبَةً في رُؤْيَةِ أَحَدٍ من أفْرادِ تلك العائِلَةِ القاسِيَةِ مَرَّةً أُخرى .

على أنّ بِسي – تلك الرّوحَ الشَّفّافَةَ العَطوفَ – رافَقَتْني وأنا أسيرُ لِمُلاقاةِ العَرَبَةِ عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ . وعِنْدَما قَعْقَعَتْ أخيرًا مُعْلِنَةً عن وُصولِها ، إلْتَصَقْتُ ببِسي في وَداعٍ دامِعٍ حارٍّ ، إلى أنِ انْتَزَعَني الحارِسُ عنها بِرِفْقٍ وأَوْدَعَني داخِلَ العَرَبَةِ .

بعد رِحْلَةٍ مُرْهِقَةٍ طُولُها خَمْسونَ ميلًا ، اِسْتَغْرَقَتْ مُعْظَمَ النَّهارِ ، وَصَلْتُ إلى مَدْرَسَةِ لووُد . وسُرْعانَ ما دَخَلَتْ ناظِرَةُ المَدْرَسَةِ – الآنِسَةُ تِمْبِل – إلى الحُجْرَةِ . كانتِ امْرَأَةً فارِعَةً ذاتَ شَعْرٍ أَسْوَدَ فاحِمٍ ، تَبْدو عليها سيماءُ الرِّقَّةِ والعَطْفِ ، وكانت في صُحْبَتِها إحْدى المُدَرِّساتِ ، وتُدْعى الآنِسَةَ ميللر .

اِلْتَفَتَتِ النّاظِرَةُ نَحْوي وقالَتْ : « هذه الطِّفْلَةُ أَصْغَرُ من أنْ يُبْعَثَ بها إلى المَدْرَسَةِ بِمُفْرَدِها » ، ثُمَّ سَأَلَتْني : « هل هذه أَوَّلُ مَرَّةٍ تَفْتَرِقينَ عن والِدَيْكِ ؟ »

أَجَبْتُ : ليسَ لي والِدانِ . فَسَأَلَتْني عنِ اسْمي بِالكامِلِ وسِنّي ، وعَمّا إذا كُنْتُ أَسْتَطيعُ القِراءَةَ والكِتابَةَ ، ثم أَذِنَتْ لي بالانْصِرافِ مع الآنِسَةِ ميللر .

وسِرْتُ مع الآنِسَةِ ميللر في أَحَدِ الأَرْوِقَةِ إلى أنْ أَتَيْنا إلى قاعَةٍ فَسيحَةٍ مُسْتَطيلَةٍ تَجْلِسُ فيها ثَمانونَ فَتاةً على أرائِكَ مُمْتَدَّةٍ حَوْلَ مِنْضَدَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ . وكانَتِ الفَتَياتُ من أَعْمارٍ مُخْتَلِفَةٍ تَتَراوَحُ ما بَيْنَ التّاسِعَةِ إلى العِشْرينَ ، يَرْتَدينَ عَباءاتٍ بُنِّيَّةً ومآزِرَ بَيْضاءَ من طِرازٍ قديمٍ ، وكُنَّ مُنْهَمِكاتٍ في الإعْدادِ لِدُروسِ اليَوْمِ التّالي . ولمّا فَرَغَتِ المُدَرِّسَةُ من جَمْعِ الكُتُبِ والكَرّاساتِ من التِّلْميذاتِ ، قَدَّموا لنا عَشاءً رَخيصًا سَيِّئًا من دَقيقِ الشّوفانِ وماءٍ . ثُمَّ أُمِرْنا بِالسَّيْرِ في صُفوفٍ مُنْتَظِمَةٍ إلى غُرَفِ النَّوْمِ .

ما إنْ بَزَغَ ضَوْءُ الفَجْرِ في الصَّباحِ التّالي حَتّى صَحَوْنا جميعًا مَفْزوعِينَ على رَنينِ جَرَسٍ عالٍ مُتَواصِلٍ. كانَ الجَوُّ شَديدَ البُرودَةِ، وكان لِزامًا علينا أنْ نَغْتَسِلَ بِماءٍ ثَلْجِيٍّ قارِسٍ، وأنْ نَتَشارَكَ كُلُّ سِتِّ فَتَياتٍ في حَوْضٍ واحِدٍ. ومَرَّةً أُخْرى دَقَّ الجَرَسُ، فانْتَظَمْنا في صَفٍّ طَويلٍ، وهَبَطْنا الدَّرَجَ إلى غُرْفَةٍ رَطْبَةٍ مُعْتِمَةٍ من غُرَفِ الدِّراسَةِ.

وأَخَذَ صَوْتُ الآنِسَةِ ميللر يَعْلو في اهْتياجٍ آمِرًا إيّانا بالصَّمْتِ والسُّكون، بَيْنَما كان يَسودُنا هَرْجٌ ومَرْجٌ شَديدانِ – غير أنَّهُمْ نَجَحوا آخِرَ الأَمْرِ في تَقْسيمِنا إلى مَجْموعاتٍ بِحَسَبِ مُسْتَوانا العِلْمِيِّ، وإجْلاسِ كُلِّ مَجْموعَةٍ حَوْلَ مِنْضَدَةٍ كَبيرَةٍ. ولقد وُضِعْتُ ضِمْنَ تِلْميذاتِ الصَّفِّ الأَدْنى. وبَدَأْنا حِصَّةً طَويلَةً في تَعَلُّمِ القِراءَةِ.

ثمّ حانَ وَقْتُ الفَطورِ فساقونا إلى غُرْفَةِ الطَّعامِ في نِظامٍ. وهُناكَ جَلَسْنا أمامَ أَوْعِيَةٍ ضَخْمَةٍ مِنَ الثَّريدِ السّاخِنِ يَتَصاعَدُ منها البُخارُ. غَيْرَ أنَّ رائِحَةَ الثَّريدِ كانت مُنَفِّرَةً جِدًّا، فانْتَشَرَتْ هَمَساتُ الضّيقِ والسُّخْطِ في أَرْجاءِ المَكانِ.



صاحَت الفَتَياتُ الأَكْبَرُ سِنًّا بِصَوْتٍ عالٍ: « إنّهُ لَشَيْءٌ مُقَزِّزٌ حَقًّا! هذا الثَّريدُ قد فَسُدَ ثُمَّ أُعيدَ غَلْيُهُ! » لم تَقْوَ غالِبِيَّتُنا على تَناوُلِ ذلك الفَطورِ. وعُدْنا جميعًا إلى قاعَةِ الدَّرْسِ مُتَهافِتاتٍ مِنَ الجوعِ. واسْتُؤْنِفَتْ دُروسُ الصَّباحِ في صُعوبَةٍ بالِغَةٍ، وَسْطَ هَمْهَماتِ التَّذَمُّرِ والسُّخْطِ. وفي ظُهْرِ ذلِكَ اليَوْمِ، دَلَفَتِ الآنِسَةُ تمبل إلى القاعَةِ لِتُلْقِيَ بِبَيانٍ هامٍّ.

قالَتْ: « أَيَّتُها الفَتَياتُ: لقد قُدِّمَ إلَيْكُنَّ هذا الصَّباحَ فَطورٌ لم تَسْتَطِعْنَ تناوُلَهُ، ولا بُدَّ أنَّكُنَّ الآنَ تُعانينَ مِنَ الجوعِ. لهذا فقد أَمَرْتُ لَكُنَّ جميعًا بِوَجْبَةِ غِذاءٍ دَسِمَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنَ الجُبْنِ والخُبْزِ ».

فَغَرتِ المُدَرِّساتُ أَفْواهَهُنَّ في تَعَجُّبٍ ودَهْشَةٍ. فأَضافَتْ تُوَضِّحُ لَهُنَّ الأَمْرَ: « لا عَلَيْكُنَّ. سَوْفَ أَتَحَمَّلُ شَخْصِيًّا مَسْؤولِيَّةَ هذا التَّصَرُّفِ. »

وأُحْضِرَ لنا الجُبْنُ والخُبْزُ. وتَمَّ تَوْزيعُهُ علينا وَسْطَ مَظاهِرِ الحُبورِ والارْتِياحِ البالِغَيْنِ. ثُمَّ أُمِرْنا بعد ذلِكَ بالانْصِرافِ، فانْطَلَقْنا إلى الحَديقَةِ.

كان الوَقْتُ شِتاءً يَلُفُّهُ الضَّبابُ، وأَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ في أَرْجاءِ الحَديقَةِ الكَئيبَةِ الرَّطْبَةِ، مَحزونَةَ القَلْبِ ومُنْفَرِدَةً مع أفْكاري. ولاحَ أَمامي مَبْنى المَدْرَسَةِ الكالِحُ، وفَوْقَ بابِهِ كان هُناكَ لَوْحٌ حَجَرِيٌّ يَحْمِلُ عُنْوانًا مَنْقوشًا يَقولُ: « مُؤَسَّسَةُ لوود الخَيْرِيَّةُ. هذا القِسْمُ قد أُعيدَ بِناؤُهُ بِواسِطَةِ ناوُومي بروكِلْهَرسْت ».

وجَذَبَ التِفاتي صَوْتُ سُعالٍ عن قُرْبٍ. والتَفَتُّ فإذا بِفَتاةٍ – تَكْبُرُني بِقَليلٍ – تَجْلِسُ على أَريكَةٍ مُجاوِرَةٍ. سَأَلْتُها: « لِماذا يُسَمّى هذا المَكانُ مُؤَسَّسَةً خَيْرِيَّةً؟ »

فأَجابَتْ: « لأنَّهُ يُعْتَبَرُ – على نَحْوٍ ما – مَدْرَسَةً خَيْرِيَّةً. إنَّ أَيَّ فَتاةٍ هُنا يَتيمَةٌ فَقَدَتْ أَحَدَ والِدَيْها أو كِلَيْهِما، ويُسَدِّدُ عنها بَعْضُ الأَقارِبِ أوِ الأَصْدِقاءِ خَمْسَةَ عَشَرَ جُنَيْهًا كُلَّ عامٍ. لكنْ خَمْسَةَ عَشَرَ جُنَيْهًا في العامِ لَيسَ بِالمَبْلَغِ الّذي يَكْفي نَفَقاتِ الغِذاءِ والكِساءِ، ولهذا يَقومُ الخَيِّرونَ من أَهالي المِنْطَقَةِ بِسَدِّ العَجْزِ. »

قُلْتُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الصَّمْتِ: « ومَنْ هي ناوُومي بروكِلْهَرسْت؟ »

أَجابَتْ: « إنّها سَيِّدَةٌ مِنَ المِنْطَقَةِ قامَتْ بِبِناءِ هذا الجُزْءِ مِنَ المَدْرَسَةِ. وابْنُها هو الّذي يُديرُ كُلَّ شَيْءٍ هُنا الآنَ. »

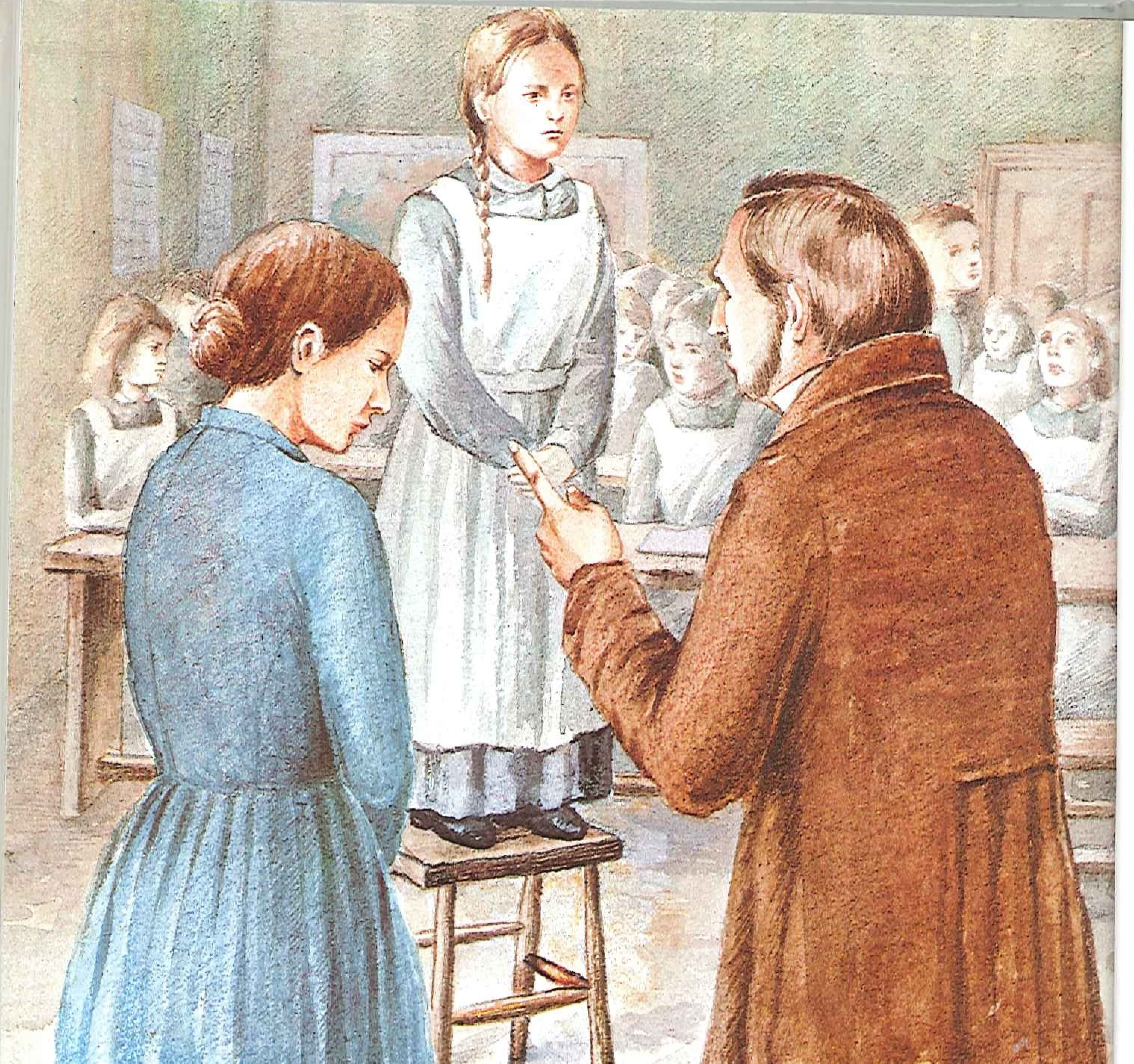
تناوَلْنا بَعْدَ حينٍ وَجْبَةً مِنَ البَطاطسِ مع قَليلٍ مِنَ اللَّحْمِ ، وكانَتِ الوَجْبَةُ كافيَةً ولكنْ تَفْتَقِرُ إلى جُودَةِ الطَّهْيِ . وانْهَمَكْنا في مَزيدٍ مِنَ الدُّروسِ إلى أنْ أتَوا إلينا في السّاعَةِ الخامِسَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الشاي والخُبْزِ . بعد ذلِكَ مُنِحْنا فُسْحَةً لِلتَّرْويحِ واللَّعِبِ ، مُدَّتُها نِصْفُ ساعَةٍ ، أَعْقَبَتْها فَتْرَةٌ طَويلَةٌ مِنَ المُذاكَرَةِ والإعْدادِ لِدُروسِ اليَوْمِ التّالي . ثُمَّ صَعِدْنا لِلنَّوْمِ بَعْدَ أَخْذِ عَشاءٍ خَفيفٍ ... وكان هذا هو بَرْنامَجَنا اليَوْمِيَّ .

بَدا ليَ الفَصْلُ الدِّراسِيُّ الأَوَّلُ في لوود دَهْرًا لا يَنْتَهي مِنَ المُعاناةِ ، ومن مُقاساةِ البَرْدِ والجوع . كانت مَلابِسُنا هَشَّةً ، وعَنابِرُ نَوْمِنا الفَسيحَةُ لا يَنْبَعِثُ فيها الدِّفْءُ كما إنّ نيرانَ المِدْفَأَةِ في قاعَةِ الدَّرْسِ كان يَحْجُبُها عَنِ الفَتَياتِ الصَّغيراتِ صَفّانِ مِنَ الفَتَياتِ الأَكْبَرِ سِنًّا وجِسْمًا ، وهُنَّ اللّائي كُنَّ يُغْرينَنا في الوَقْتِ نَفْسِهِ – أو يُهَدِّدْنَنا على الأَرْجَحِ – كي نُعْطيَهُنَّ بَعْضَ أَنْصِبَتِنا مِنَ الشاي والخُبْزِ .

وكانَتْ أَيّامُ الآحادِ – كما أَتَذَكَّرُها – كَئيبَةً مُوحِشَةً بِنَوْعٍ خاصٍّ ، فقد كان لِزامًا علينا أنْ نَمْشيَ ميلَيْنِ – مَهْما تَكُنْ رَداءَةُ الطَّقْسِ – حَتّى نَصِلَ إلى المَبْنى الّذي نُصَلّي فيه . كُنّا نَبْدَأُ تلك الرِّحْلَةَ ونحن نَرْتَعِشُ مِنَ البَرْدِ ، ونُقاسي في الوصول إلى هُناكَ بُرودَةً أَشَدَّ ، ثُمَّ نَجْلِسُ بَعْدَ ذلِكَ في القاعَةِ الفَسيحَةِ الرَّطْبَةِ ، وقد تَجَمَّدْنا مِنَ الزَّمْهَريرِ ، لِمُدَّةِ ساعَةٍ ونِصْفِ ساعَةٍ على الأَقَلِّ . وفي طَريقِ العَوْدَةِ ، كُنّا نَسيرُ في طَريقٍ وَعِرٍ مَكْشوفٍ تَلْفَحُنا فيه الرّيحُ الثَّلْجِيَّةُ ، وتَكادُ أنْ تَنْتَزِعَ الجِلْدَ من وجوهِنا . وكانَتِ الآنِسَةُ تمبل تُشارِكُنا بُؤْسَنا ، وتُحاوِلُ جاهِدَةً أنْ تُشَجِّعَنا على الطَّريقِ بِالغِناءِ والهُتافِ .

لم أَكُنْ قد قَضَيْتُ وَقْتًا طَويلًا في تلك المَدْرَسَةِ حينَ قَدِمَ إلينا مستر بروكِلْهَرسْت في زِيارَةٍ رَسْمِيَّةٍ . وبَدَأَ بِتَأْنيبِ الآنِسَةِ تمبل تَأْنيبًا رَسْمِيًّا عَلَنِيًّا لِتَقْديمِها وَجْبَةً إضافِيَّةً مِنَ الخُبْزِ والجُبْنِ لنا ، ثُمَّ أبدى تَذَمُّرَهُ واسْتياءَهُ من إعْطاءِ بَعْضِ الفَتَياتِ مِئْزَرَتَيْنِ نَظيفَتَيْنِ في أُسْبوعٍ واحِدٍ ، ثُمَّ لم يَلْبَثْ أنْ أَصْدَرَ أَمْرَهُ بِقَصِّ شُعورِ البَناتِ ذَواتِ الخُصَلِ أو الشَّعْرِ الطَّويلِ تَخْليصًا لِعُقولِهِنَّ مِنَ الأَفْكارِ الشِّرّيرَةِ وإنْقاذًا لأَرْواحِهِنَّ مِنَ الهَلاكِ الأَبَدِيِّ ! ولِسوءِ الحَظِّ ، سَقَطَ كِتابي من يَدي في تلك اللَّحْظَةِ . اسْتَدارَ مستر بروكِلْهَرسْت نَحْوي فَرآني ، وعَرَفَ مَنْ أَكونُ واسْتَدْعاني .

خَرَجْتُ من بَيْنِ الصُّفوفِ ، وعِنْدَما مَرَرْتُ بِجانِبِ الآنِسَةِ تمبل هَمَسَتْ لي قائِلَةً : « لا تَخافي ، يا جين . أَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْءٌ عَفْوِيٌّ » .



ثُمَّ أَعْلَنَ لِلْحاضِراتِ جَميعًا : « هل تَرَيْنَ هذه الطِّفْلَةَ ؟ أرى لِزامًا عَلَيَّ أنْ أُخْبِرَكُنَّ أنّها كاذِبَةٌ مُخاتِلَةٌ . تَجَنَّبْنَها تَمامًا ، وخُذْنَ منها حَذَرَكُنَّ . »

وعِنْدَما أُذِنَ لِفَتَياتِ المَدْرَسَةِ بِالانْصِرافِ لِتَناوُلِ الشّاي نَزَلْتُ من فَوْقِ المِقْعَدِ وانْخَرَطْتُ في بُكاءٍ مَريرٍ . لقد فَعَلْتُ في لوود أَقْصى ما أَسْتَطيعُ لأَحْظى بِالمَوَدَّةِ والاحْتِرام ، ولكنَّ حِقْدَ مسز ريد وضَغينَتَها قد لاحَقاني أَيْضًا إلى ذلِكَ المَكانِ ، مِمّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِالقَهْرِ ! ... وأَحْضَرَتْ لي هيلين نَصيبي مِنَ الشاي والخُبْزِ ، وبَذَلَتْ قُصارى جَهْدِها لِتَخْليصي من حُزْني . ولقد أَكَّدَتْ لي أنّ الفَتَياتِ جَميعًا يَكْرَهْنَ مستر بروكِلْهَرسْت ولن يُصَدِّقْنَ بِحالٍ ما تناوَلَني به من كَلِماتٍ جارِحَةٍ .

بَعْدَ ظُهْرِ ذلِكَ اليَوْمِ دَعَتْني الآنِسَةُ تمبل – ومعي هيلين – إلى غُرْفَتِها ، حَيْثُ طَلَبَتْ مِنّي أنْ أَقُصَّ عليها قِصَّةَ حَياتي بِالتَّفْصيلِ . وتَطَرَّقَ الحَديثُ إلى قَسْوَةِ مسز ريد وفَظاظَتِها معي ، وعِنْدَما جاءَ ذِكْرُ مستر لويد – الصَّيْدَليِّ – قالَتِ الآنِسَةُ تمبل : « أنا أَعْرِفُ هذا الرَّجُلَ جَيِّدًا . سَوْفَ أَكْتُبُ له بِخُصوصِكِ ، وأنا على ثِقَةٍ تامَّةٍ بأنَّهُ سَيُؤَكِّدُ جميعَ أَقْوالِكِ . إنّي أُصَدِّقُ تمامًا كُلَّ كَلِمَةٍ خَرَجَتْ من فَمِكِ . »

ثُمَّ قَبَّلَتْني قُبْلَةً رَقيقَةً حَنونًا مَنَحَتْني شُعورًا جارِفًا بالسَّعادَةِ والرِّضاء ، اِسْتَدارَتْ بَعْدَها نَحْوَ هيلين مُسْتَفْسِرةً عن صِحَّتِها . وأَجابَتْ هيلين – في شَجاعَةٍ – أنَّها بِخَيْرٍ ، مع أنَّها كانت تُعاني من سُعالٍ مُسْتَديمٍ وأَلَمٍ في الصَّدْرِ .

دَعَتْنا الآنِسَةُ تمبل لِتَناوُلِ الشّايِ معها ، وأَرْسَلَتْ في طَلَبِ كوبَيْنِ إضافِيَّيْنِ . وبَعَثَتْ مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ بِالشّايِ ، غَيْرَ أنَّها رَفَضَتْ أنْ تُقَدِّمَ مَزيدًا مِنَ الخُبْزِ المُحَمَّصِ ، خَشْيَةَ غَضَبِ مستر بروكِلْهَرِسْت . لكِنَّ الآنِسَةَ تمبل سارَعَتْ بإخْراجِ كَعْكَةٍ كَبيرَةٍ من خِزانَتِها ، وتَناوَلْنا ثَلاثَتُنا – في ذلِكَ المَساءِ – وَليمَةً شَهِيَّةً رائِعَةً .

بَعْدَ ذلِكَ بِأُسْبوعٍ ، تَسَلَّمَتِ الآنِسَةُ تمبل خِطابًا من مستر لويد . وسُرْعانَ ما حَشَدَتْ تِلميذاتِ المَدْرَسَةِ ومُدَرِّساتِها جَميعًا ، وقَرَأَتْ عَليهِنَّ الخِطابَ ، مُعْلِنَةً بذلِكَ بَراءَتي على المَلَإِ من كُلِّ التُّهَمِ الّتي أَلْصَقَها بي مستر بروكِلْهَرِسْت .

وأَقْبَلَ الرَّبيعُ وذابَتِ الثُّلوجُ ، فأَضْحَتِ الحَياةُ أَكْثَرَ بَهْجَةً وإشْراقًا . وكانَتْ لووُد تَحْتَلُّ مَوْقِعًا فَريدًا في وادٍ كَبيرٍ غائِرٍ تَحُفُّ به التِّلالُ المُشَجَّرَةُ ، ويَنْسابُ في وَسَطِهِ نَهْرٌ بَديعٌ رائِقٌ . لكِنَّ ذلِكَ الوادِيَ الجَميلَ الغَنِيَّ بالأَشْجارِ الباسِقَةِ كان مَرْتَعًا لِلضَّبابِ المُتَكاثِفِ والأَمْراضِ المُعْدِيَةِ لِسُوءِ الحَظِّ ، فاجْتاحَ وَباءُ التّيفوسِ لووُد التَّعِسَةَ وطالَ خَمْسًا وأَرْبَعينَ فَتاةً ، حَصَدَ المَوْتُ مُعْظَمَهُنَّ .

وكانت هيلين بِرْنز مَريضَةً كذلِكَ ، ولكِنْ بِمَرَضٍ غَيرِ حُمّى التّيفوسِ . كانت تُعاني من داءِ الدَّرَنِ ، وَهُوَ داءٌ كُنْتُ أَظُنُّ – لِجَهْلي – أنَّهُ يَسيرُ الشِّفاءِ . وقد نُقِلَتْ إلى سَريرٍ خالٍ بِحُجْرَةِ الآنِسَةِ تمبل . وفي ذاتِ لَيْلَةٍ شَعَرْتُ بِحَنينٍ جارِفٍ لِرُؤْيَةِ صَديقَتي ، فزَحَفْتُ عَبْرَ الرُّواقِ إلى غُرْفَةِ الآنِسَةِ تمبل حَيْثُ وَجَدْتُ هيلين مُسْتَيْقِظَةً تَسْعُلُ سُعالًا مُتَواصِلًا في شِدَّةٍ . تَطَلَّعَتْ هيلين إليَّ ثُمَّ قالَتْ في صَوْتٍ ضَعيفٍ : « لِماذا جِئْتِ إلى هنا ، يا جين ؟ هَل جِئْتِ لِتُوَدِّعيني الوَداعَ الأَخيرَ ؟ »

« كَلّا ، كَلّا ، يا هيلين ... » – أَجَبْتُ في أَسًى عَميقٍ .

فَهَمَسَتْ لي قائِلَةً : « لا تَتْرُكيني ، يا جين ، فأنا أُحِبُّ أنْ تَبْقَي إلى جِواري . » جَلَسْتُ على حافَّةِ السَّريرِ وأَمْسَكْتُ بِيَدِها ، ولم يَلْبَثْ أنْ غَلَبَني النُّعاسُ .

وفي الصَّباحِ التّالي وَجَدَتْنا الآنِسَةُ تمبل مَعًا ، ويَدانا ما زالَتا مُتَعانِقَتَيْنِ ، لكِنَّ روحَ هيلين كانت قَد صَعِدَتْ إلى بارِئِها في جُنْحِ اللَّيْلِ ، تارِكَةً إيّايَ في حُزْنٍ بالِغٍ وهَمٍّ مُقيمٍ !

أَدَّتْ حِدَّةُ وَباءِ التَّيفوسِ وانْتِشارُهُ إلى تَحْقيقاتٍ واسِعَةٍ بِهذا الشَّأْنِ، وتَبَيَّنَ أنَّ البَرْدَ القارِسَ وسوءَ التَّغْذِيَةِ قد أَدَّيا إلى فُقْدانِ المَناعَةِ عِنْدَ الفَتَياتِ وضَعْفِ مُقاوَمَتِهِنَّ لِلْمَرَضِ. وكان أنْ أُقيلَ مستر بروكِلْهِرسْت من مَنْصِبِهِ، وأَخَذَ مَنْ تَبَقّى مِنّا على قَيْدِ الحَياةِ في الاِسْتِفادَةِ مِنَ التَّحَسُّنِ الّذي طَرَأَ على أَوْضاعِ الدّارِ.

هكذا مَرَّتِ السِّنونَ في لووُد حَيْثُ سَعِدْتُ آخِرَ الأَمْرِ وأَنْشَأْتُ فيها صَداقاتٍ كَثيرَةً. ولقد قَضَيْتُ هُناكَ سِتَّ سَنَواتٍ كَتِلْميذَةٍ، واثْنَتَيْنِ كَمُدَرِّسَةٍ مُساعِدَةٍ، وعَمِلْتُ بِجِدٍّ واجْتِهادٍ خِلالَ تلك الفَتْرَةِ، فاكْتَسَبْتُ ثَقافَةً مُمْتازَةً أفادَتْني كَثيرًا حينَ اشْتَغَلْتُ بِتَدْريسِ الفَتَياتِ الصَّغيراتِ فيما بَعْدُ. ولقد أَحْبَبْتُ الآنِسَةَ تِمْبِل وأُعْجِبْتُ بِها كَثيرًا، غَيْرَ أنَّها لم تَلْبَثْ أنْ رَحَلَتْ عنّا لِتَتَزَوَّجَ. وعَصَفَ فُقْداني لهذه الصَّديقَةِ الوَفِيَّةِ المُخْلِصَةِ بِأَمْني الدّاخِلِيِّ واسْتِقْراري، فأَخَذَتْ أَفْكاري تَتَّجِهُ إلى الحُرِّيَّةِ والاِنْطِلاقِ في العالَمِ الخارِجِيِّ.

وبَعْدَ تَفْكيرٍ طَويلٍ قَرَّرْتُ أنْ أَنْشُرَ إعْلانًا في إحْدى الصُّحُفِ أَطْلُبُ عَمَلاً كَمُدَرِّسَةِ أَطْفالٍ لَدى إحْدى العائِلاتِ – وكان بِوُسْعي حينَئِذٍ أنْ أُعْطِيَ دُروسًا في اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ والموسيقى والرَّسْمِ، بالإضافَةِ إلى الموادِّ الدِّراسِيَّةِ الأُخْرى المُعْتادَةِ – فَتَلَقَّيْتُ بَعْدَ حينٍ خِطابًا وَحيدًا من سَيِّدَةٍ تُدْعى مسز فيرفاكس من قَصْرِ ثورنفيلد – قُرْبَ ميلكوت – تُخْطِرُني فيه بأنَّها قَرَأَتِ الإعْلانَ المَنْشورَ، وأنَّها تُوافِقُ على إلْحاقي بالعَمَلِ المَذْكورِ بَعْدَ اسْتيفاءِ الشَّهاداتِ المَطْلوبَةِ واعْتِمادِها من ناظِرَةِ المَدْرَسَةِ في لووُد ومَجْلِسِ إدارَتِها، وأنَّني سَوْفَ أقومُ بِتَدْريسِ فَتاةٍ صَغيرَةٍ دونَ العاشِرَةِ لِقاءَ مُرَتَّبٍ قَدْرُهُ ثلاثونَ جُنَيْهًا في العامِ، بالإضافَةِ إلى الإقامَةِ المَجّانِيَّةِ وتَناوُلِ الطَّعامِ داخِلَ القَصْرِ.

غادَرْتُ لووُد إلى مَقَرِّ عَمَلي الجَديدِ. على أنَّني تَلَقَّيْتُ – قُبَيْلَ مُغادَرَتي إيّاها – زِيارَةً غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ. كانَتِ الزّائِرَةُ هي بِسي، صَديقَتي القَديمَةَ في جيتسهيد!...

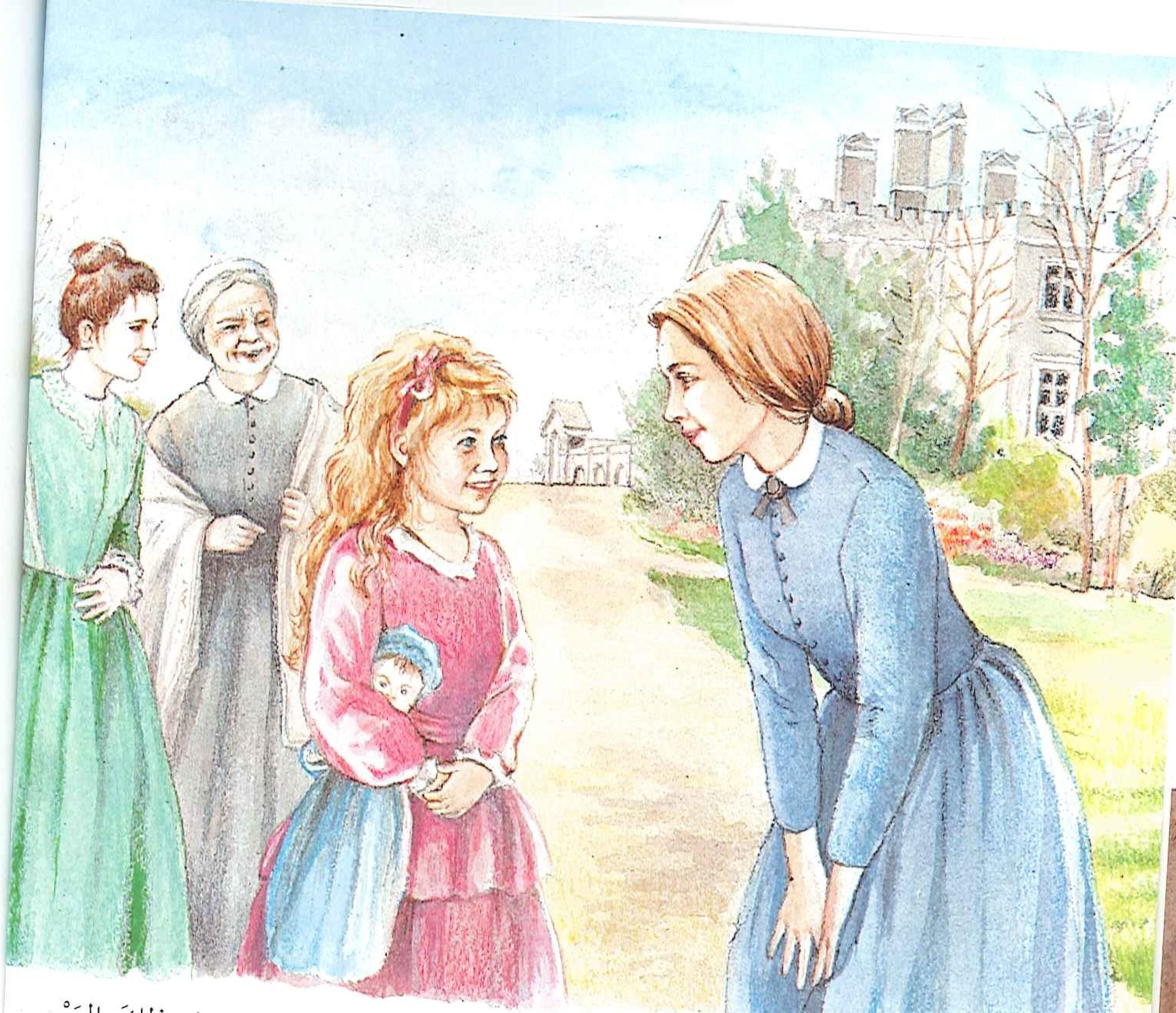
واندَفَعَتْ كُلٌّ مِنّا إلى حضْنِ الأُخْرى في لِقاءٍ حارٍّ دامِعٍ. وتَحَشْرَجَتْ في فَمي الكَلِماتُ... « بِسي! بِسي! بِسي! » – كان هذا كُلَّ ما اسْتَطَعْتُ أنْ أَتَفَوَّهَ به بَعْدَ ذلِكَ الغِيابِ الطَّويلِ. أمّا من ناحِيَتِها فقد أَخَذَتْ تَبْكي تارَةً وتَضْحَكُ تارَةً أُخْرى، ولكنَّها كانت تَهْتِفُ طيلَةَ الوَقْتِ: « يا عَزيزَتي جين، ها قد الْتَقَيْنا مَرَّةً أُخْرى. »

سُرْعانَ ما أَطْلَعَتْني بِسي على أَخْبارِ جيتسهيد كُلِّها: قالتْ إنّها تَزَوَّجَتْ روبرت – سائِقَ العَرَبَةِ – مُنْذُ بِضْعِ سَنَواتٍ وأَنْجَبَتْ منهُ طِفْلَتَيْنِ، وإنّها قد أَسْمَتِ الصُّغْرى جين كما أضافَتْ أنَّ أُسْرَةَ خالي ريد لم تَعْرِفْ لِلسَّعادَةِ سَبيلًا على الإطْلاقِ.

كما أَخْبَرَتْني بِسي أَيْضًا بواقِعَةٍ غَريبَةٍ... قالتْ إنَّ رَجُلًا يُدْعى مستر إير قد زارَ جيتسهيد مُنْذُ سَبْعِ سَنَواتٍ خِصّيصًا لِيَراني، وإنّهُ قد أُصيبَ بالحُزْنِ والإحْباطِ عِنْدَما عَلِمَ أنَّني ذَهَبْتُ إلى مَدْرَسَةِ لووُد، ولأنّهُ لن يَتَمَكَّنَ من رُؤْيَتي قَبْلَ إبْحارِهِ إلى الخارِجِ في السَّفينَةِ الّتي كانت سَتُغادِرُ ميناءَ لندن إلى مديرا بَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ من تلك الزِّيارَةِ. قالَتْ في حَماسَةٍ: « كان مستر إير هذا سَيِّدًا مُهَذَّبًا لِلْغايَةِ، كما كانَتْ تَبْدو عليه أَماراتُ النُّبْلِ وطيبِ المَحْتَدِ. وأَظُنُّهُ قالَ بِأَنَّهُ عَمُّكِ. »

وتَرَكَني ذِكْرُ هذه الواقِعَةِ الغَريبَةِ في حَيْرَةٍ شَديدَةٍ.





في الصَّباحِ الباكِرِ، غادَرْتُ لوود في أَمَلٍ واسْتِبْشارٍ. وفي مساءِ ذلِكَ اليَوْمِ وَصَلْتُ في عَرَبَةِ المُسافِرينَ إلى بَلْدَةِ ميلكوت وهُناكَ اسْتَقْبَلَني رَسولٌ حَمَلَني بِعَرَبَتِهِ الخاصَّةِ إلى قَصْرِ ثورنفيلد. وعِنْدَ وُصولي لم أَسْتَطِعْ أَنْ أَرى إلّا جُزْءًا يَسيرًا مِنَ القَصْرِ، فقد قادوني مُباشَرَةً إلى غُرْفَةٍ بَهيجَةٍ واسِعَةٍ تَخْطِفُ فيها أَضْواءُ الشُّموعِ ونيرانُ المِدْفَأَةِ الأَبْصارَ، لا سِيَّما لِلْقادِمِ إليها مِنَ الظَّلامِ المُخَيِّمِ في الخارِجِ.

نَهَضَتْ سَيِّدَةٌ عَجوزٌ ضَئيلَةُ الجِسْمِ من مَقْعَدِها بِقُرْبِ المِدْفَأَةِ وحَيَّتْني في رِقَّةٍ وأَدَبٍ، ثُمّ قَدَّمَتْ نَفْسَها إليَّ على أَنَّها مسز فيرفاكس، مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ. وسُرْعانَ ما أَمَرَتِ الخادِمَةَ لِيَا أن تُحْضِرَ لي مَشْروبًا ساخِنًا مع بِضْعِ شَطائِرَ في الحالِ. ثُمَّ أَخْبَرَتْني أَنّ الفَتاةَ الّتي سَأَتَوَلّى تَثْقيفَها لَيْسَتِ ابْنَتَها، ولكنَّها طِفْلَةٌ فَرَنْسِيَّةٌ تُدْعى: أديل ڤارينز.

وفي الصَّباحِ التّالي، نَهَضْتُ من فِراشي بَعْدَ نَوْمٍ هادِئٍ عَميقٍ. ومع أَشِعَّةِ

الشَّمْسِ المُتَسَلِّلَةِ عَبْرَ سَتائِرِ غُرْفَتي الجَميلَةِ، أَخَذَتْ روحي تَنْتَعِشُ، فارْتَدَيْتُ عَباءَتي السَّوْداءَ اللّامِعَةَ بِسُرْعَةٍ، وخَرَجْتُ إلى الحَديقَةِ.

بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ خَرَجَتْ مسز فيرفاكس ومعها أديل ومُرَبِّيَتُها صوفي، وكان من حُسْنِ الحَظِّ أَنْ تَمَكَّنْتُ من مُحادَثَتِهِما بِاللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ.

صاحَتْ أديل بِالفَرَنْسِيَّةِ: «آه! أنتِ تَتَكَلَّمينَ لُغَتي... إذًا فَسَوْفَ يُمْكِنُني التَّحَدُّثُ إليكِ بِسُهولَةٍ، وكذا تَسْتَطيعُ صوفي... إنّ مسز فيرفاكس لا تَتَحَدَّثُ سوى الإِنْجليزِيَّةِ.»

وتَطَرَّقَ الحَديثُ إلى بَيْتِها في فَرَنسا، فأَخْبَرَتْني أنّ أُمَّها قد ماتَتْ، كما ذَكَرَتْ أنّ مستر روتشستر – صاحِبَ القَصْرِ – قد أتى بها إلى ثورنفيلد مُنْذُ سِتَّةِ شُهورٍ فَقَطْ.

أَعْطَيْتُ لها دُروسَ اليَوْمِ الأَوَّلِ في قاعَةِ المَكْتَبَةِ. وعِنْدَ الظُّهْرِ طافَتْ بي مسز فيرفاكس أَرْجاءَ القَصْرِ لأَتَعَرَّفَ على قاعاتِهِ المُخْتَلِفَةِ. كانَتِ الحُجُراتُ الرَّئيسِيَّةُ أَنيقَةً فاخِرَةَ الرِّياشِ، أَمّا الأَرْوِقَةُ والدَّهاليزُ فكانت كَئيبَةً مُعْتِمَةً. وثَمَّةَ مَجْموعَةٌ مِنَ الصُّوَرِ الشَّخْصِيَّةِ المُتَناثِرَةِ على الجُدْرانِ لأَفْرادِ الأُسْرَةِ الأَقْدَمينَ بَعَثَتْ في نَفْسي خَواطِرَ كَئيبَةً عَنِ الأَشْباحِ والأَرْواحِ. ولمّا أَتَيْنا إلى الدَّوْرِ العُلْوِيِّ، صَعِدْنا منه سُلَّمًا خاصًّا إلى سَطْحِ المَبْنى، حَيْثُ وَقَفْنا بُرْهَةً نَشْهَدُ مَنْظَرًا بَديعًا لِلرّيفِ المُحيطِ بِالقَصْرِ.

وبَيْنَما نحن نَعودُ أَدْراجَنا عَبْرَ نَفْسِ السُّلَّمِ، تَناهى إلى سَمْعي فَجْأَةً صَوْتُ ضِحْكَةٍ غَريبَةٍ مُنْبَعِثَةٍ من إحْدى حُجُراتِ الطّابِقِ العُلْوِيِّ. ولم تَلْبَثْ تلك الضِّحْكَةُ أَنْ تَعالَتْ وتَعالَتْ، ثُمّ تَوَقَّفَتْ على حينِ غِرَّةٍ. وقَرَعَتْ مسز فيرفاكس في الحالِ بابَ إحْدى الغُرَفِ، فأَطَلَّتْ من وَرائِهِ امْرَأَةٌ مُكْتَنِزَةٌ ذاتُ وَجْهٍ يَنْطِقُ بِالقُبْحِ والصَّرامَةِ – غَيْرَ أنّها لم تَكُنْ تُشْبِهُ بحالٍ الشَّبَحَ الّذي كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ أَراهُ.

«ما هذا الصَّخَبُ الشَّديدُ يا جريس؟» – قالَتْ مسز فيرفاكس. وما إنْ عادَتِ المَرْأَةُ إلى حُجْرَتِها، حَتّى الْتَفَتَتْ مسز فيرفاكس إليَّ قائِلَةً: «هذه المَرْأَةُ تُدْعى جريس بوول، وَهِيَ مَنوطَةٌ بِأَعْمالِ الحِياكَةِ في القَصْرِ.»

وهَبَطَ كِلانا الدَّرَجَ في صَمْتٍ. ولكِنَّني كُنْتُ في عَجَبٍ لِما سَمِعْتُ.



كانت حَياتي في ثورنفيلد بَهيجَةً ومُريحَةً. غَيْرَ أنّني كَثيرًا ما كُنْتُ أتوقُ للاتِّصالِ بالعالَمِ الخارِجيِّ، عِنْدَئِذٍ كُنْتُ أصْعَدُ إلى سَطحِ البَيْتِ، لأَسْتَمْتِعَ بما يُطِلُّ عليه من مَشْهَدٍ جَميلٍ رائعٍ. وكُنْتُ كُلّما صَعِدْتُ أو نَزلْتُ سَمِعْتُ ضِحْكاتِ جْريس بول الغَريبَةَ الشّاذَّةَ، وكانت تَقْتَرِنُ في بَعْضِ الأَحْيانِ بدَمْدَماتٍ عَنيفَةٍ تَبْعَثُ في نَفْسي مَزيدًا مِنَ الحَيْرَةِ والانْزِعاجِ. على أنّني كَثيرًا ما مَرَرْتُ بجْريس بَعْدَ ذلِكَ على الدَّرَجِ أو في غُرَفِ وأرْوِقَةِ المَنْزِلِ المُخْتَلِفَةِ، فلم تُفْضِ لي بِشَيْءٍ يُميطُ اللِّثامَ عن غَوامِضِ تلكَ الأَحْداثِ.

وانْقَضَتْ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ في سَعادَةٍ وسُرورٍ. وذاتَ صَباحٍ تَوَجَّهْتُ سَيْرًا على الأَقْدامِ إلى بَلْدَةٍ قَريبَةٍ. أَخَذْتُ أصْعَدُ الطَّريقَ المُؤَدّي إلى أعْلى التَّلِّ مُيَمِّمَةً صَوْبَ البَلْدَةِ. ولم أكَدْ أسيرُ بِضْعَ دَقائِقَ حتّى اخْتَرَمَ السُّكونَ المُحيطَ وَقْعُ حَوافِرِ دابَّةٍ تَدُقُّ الأَرْضَ، ثُمَّ لاحَ لي عن بُعْدٍ شَبَحُ حِصانٍ يَرْكُضُ نَحْوي بِسُرْعَةٍ في الاتِّجاهِ المُضادِّ. وفي مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ، مَرَقَ إلى جانِبي كالسَّهْمِ جَوادٌ ضَخْمٌ أَسْوَدُ يَمْتَطيهِ رَجُلٌ

جَسورٌ، يَتَقَدَّمُهُ كَلْبٌ كَبيرٌ يَطْوي الأَرْضَ في وَثَباتٍ هائِلَةٍ. وما هي إلّا لَحَظاتٌ قِصارٌ حَتّى تناهَتْ إلى سَمْعي أصْواتُ جَلَبَةٍ مَصْدَرُها أسْفَلَ الطَّريقِ، وكأنَّ حادِثًا ما قد وَقَعَ هُناكَ. وبِدافِعٍ مِنَ الرَّغْبَةِ الصّادِقَةِ في تَقْديمِ العَوْنِ، عُدْتُ أدْراجي على الطَّريقِ المُنْحَدِرِ نَفْسِهِ، فَوَجَدْتُ أنّ الجَوادَ الّذي مَرَّ بي مُنْذُ لَحَظاتٍ قَدِ انْزَلَقَتْ أقْدامُهُ فَسَقَطَ براكِبِهِ على الأرْضِ. غَيْرَ أنّهُ سُرْعانَ ما نَهَضَ من كَبْوَتِهِ وانْطَلَقَ بَعيدًا تارِكًا صاحِبَهُ مُسْتَلْقِيًا على الطَّريقِ يُعاني مِنَ الْتِواءٍ في كاحِلِهِ. كان الرَّجُلُ يُناهِزُ الأَرْبَعينَ مِنَ العُمْرِ، مُتَوَسِّطَ الطُّولِ، عَريضَ المَنْكِبَيْنِ، أَسْمَرَ البَشَرَةِ، ذا وَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ صارِمٍ.

عَرَضْتُ على الرَّجُلِ أنْ أَقْصِدَ قَصْرَ ثورنفيلد القَريبَ طَلَبًا للعَوْنِ، وأشَرْتُ إلى أنّني مُدَرِّسَةُ الأطْفالِ هُناكَ - وعِنْدَ هذه الإشارَةِ ارتَسَمَتْ أماراتُ الدَّهْشَةِ على مُحَيّاهُ. على أنَّ الجَوادَ لم يَلْبَثْ أنْ هَدَأَ بَعْدَ بُرْهَةٍ، فَتَمَكَّنْتُ مِنِ اقْتِيادِهِ إلى صاحِبِهِ، ومُعاوَنَةِ السَّيِّدِ على رُكوبِهِ. وحَدَجَني الرَّجُلُ بِنَظْرَةٍ أُخْرى خاطِفَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِجَوادِهِ.

عندما عُدْتُ بَعْدَ الظُّهْرِ إلى القَصْرِ بادَرَتْني مسز فيرْفاكس قائِلَةً: « المستر روتشسْتر – صاحِبُ القَصْرِ – عادَ من السَّفَرِ. غَيْرَ أنّ حادِثًا وَقَعَ له على الطَّريقِ... لَقَدْ سَقَطَ بِجَوادِهِ على الأَرْض، فالْتَوى كاحِلُهُ... سَوْفَ يَحْضُرُ الطَّبيبُ – مستر كارتر – لِرُؤْيَتِهِ في الحالِ.»

في اليَوْمِ التّالي دُعيتُ وبِرِفْقَتي أَديل لِتَناوُلِ الشّاي مع مستر روتشستر. كانت مسز فيرفاكس تَرْتَدي ثَوْبًا جميلًا، ولقد نَصَحَتْني أنْ أَلْبَسَ فُسْتانيَ الحَريريَّ الأَسْوَدَ. وتَوَجَّهْنا إلى حَيْثُ يَجْلِسُ السَّيِّدُ مُسْنِدًا كاحِلَهُ المُصابَ إلى إحْدى الوَسائِدِ.

وبَدَأَ الحَديثَ معي في لَهْجَةٍ رَسْمِيَّةٍ جافَّةٍ، فقال: « اِجْلِسي يا آنِسَةُ إير.»

فَجَلَسْتُ، ثُمّ خَيَّمَ علينا صَمْتٌ طويلٌ... ولَوْ أنّ الرَّجُلَ كان رَقيقًا كَيِّسًا في تلك اللَّحْظَةِ لَشَعَرْتُ إزاءَهُ بالحَرَجِ الشَّديدِ، ولكنّ الجَفْوَةَ والخُشونَةَ اللَّتَيْنِ اكْتَنَفَتا ذاك اللِّقاءَ جَعَلَتاني هادِئَةً وغَيْرَ مُكْتَرِثَةٍ تمامًا بما قد يَحْدُثُ... وأَدْرَكْتُ في الحالِ أنَّهُ المُسافِرُ نَفْسُهُ الّذي الْتَقَيْتُ به في اليَوْمِ السّابِقِ. كان يَحْمِلُ المَلامِحَ نَفْسَها: الجَبْهَةَ المُرَبَّعَةَ، والشَّعْرَ الفاحِمَ، والحاجِبَيْنِ السَّوْداوَيْنِ، والثَّغْرَ المُتَجَهِّمَ، والفَكَّ المُحْكَمَ... وكان من الواضِحِ أنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِشَخْصِيَّةٍ قَوِيَّةٍ، غَيْرَ أنَّهُ لم يَكُنْ أَبَدًا أنيقًا أو جَذّابًا. وبَعْدَ تَناوُلِ الشّاي اسْتَدارَ نَحْوي وأَمْطَرَني بِوابِلٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ:

– مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ يا آنِسَةُ إير؟

– من مَدْرَسَةِ لوود.

– سَمِعْتُ عنها من قَبْلُ. وكَمْ عامًا مَكَثْتِ فيها؟

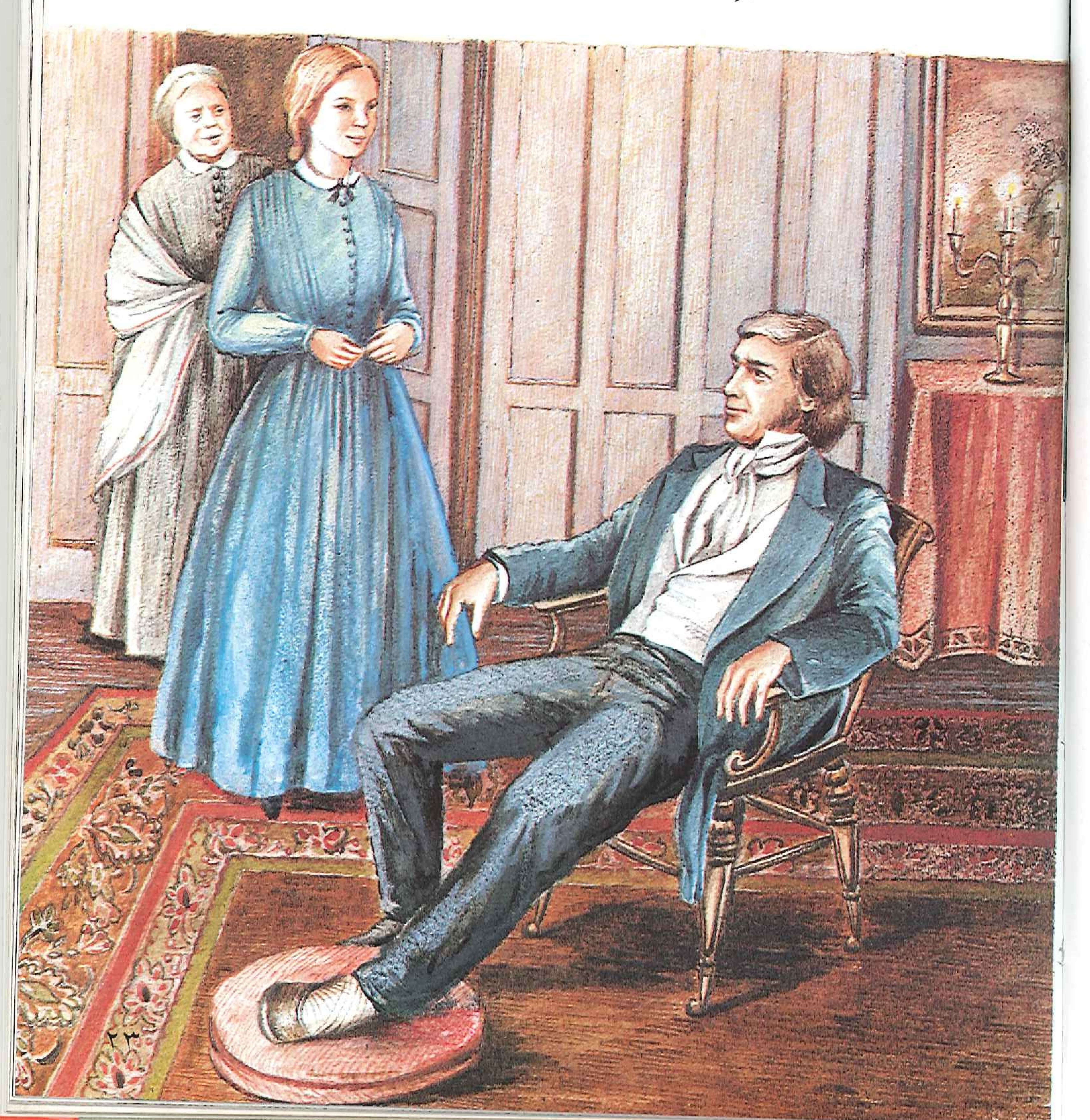
– ثَمانِيَةَ أَعْوامٍ.

– ومَنْ أَشارَ عليكِ بالمَجيءِ إلى هذا المَكانِ؟

أَجَبْتُ: « لا أَحَدَ. لقد نَشَرْتُ إعلانًا أَطْلُبُ العَمَلَ كَمُدَرِّسَةِ أَطْفالٍ، فَتَلَقَّيْتُ رَدًّا من مسز فيرفاكس بِالقَبولِ.»

يَبْدو أنّ هذه الإجاباتِ قد أَرْضَتْ فُضولَ مستر روتشستر إلى حَدٍّ كَبيرٍ، إذ انْتَقَلَ بَعْدَها لِلْحَديثِ عن عَمَلي مع الصَّغيرَةِ أَديل. وأَثْنى السَّيِّدُ على عَزْفي على البيانو، كما أَبْدى إعْجابَهُ التّامَّ بِلَوْحاتي المَرْسومَةِ.

ذَكَرْتُ بَعْدَ ذلِكَ لمسز فيرفاكس خِلالَ حَديثٍ مَعَها: « قُلْتِ لي يا مسز فيرفاكس من قَبْلُ أنّ مستر روتشستر ليس رَجُلًا شاذًّا أو غَريبَ الأَطْوارِ، غَيْرَ أَنّي أَراهُ فَظًّا ومُتَقَلِّبَ المِزاجِ.»



بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، تَسَلَّمَتْ أديل عُلْبَةً كَبيرَةً كَهَدِيَّةٍ . وبَيْنَما كانت مسز فيرفاكس تُساعِدُها في تَفْريغِ مُحْتَوَياتِها ، دَعاني مستر روتشستر إلى الجُلوسِ إليه . ولقد دُهِشْتُ لهذا الطَّلَبِ ، غَيْرَ أنّني ازْدَدْتُ دَهْشَةً عِنْدَما بادَرَني فَجْأَةً بِالسُّؤالِ : « هل تَرَيْنَني وَسيمًا ، يا آنِسَةُ إير ؟ »

أُخِذْتُ على حينِ غِرَّةٍ بهذا السُّؤالِ حَتّى أنّني سارَعْتُ بالإجابَةِ دونَ تَفْكيرٍ : « كلّا ، يا سَيِّدي . »

صاحَ قائِلًا بِابْتِسامَةٍ باهِتَةٍ : « حَسَنًا ، أنتِ صَريحَةٌ حقًّا ... أوَ تَظُنّينَني أَحْمَقَ ؟ »

أَسْرَعْتُ قائِلَةً : « أنت بَعيدٌ عن هذه المظنَّةِ كُلَّ البُعْدِ ، يا سَيِّدي . »

قَصَّ عليَّ الرَّجُلُ طَرَفًا من حَياتِهِ العابِثَةِ الّتي كان يَعيشُها من قَبْلُ ، ومن حَماقاتِهِ وأَفْعالِهِ الطّائِشَةِ في الماضي ، ثُمّ طَلَبَ مِنّي أنْ أُسْدِيَ له النَّصيحَةَ مُخْلِصَةً . وبدا في تلك اللَّحْظَةِ نادِمًا كُلَّ النَّدَمِ على ما اقْتَرَفَ في سِنيِّ حَياتِهِ السّابِقَةِ من آثامٍ .

على أنّ أديل ما لَبِثَتْ أنْ جاءَتْ تَتَقافَزُ في مَرَحٍ وسَعادَةٍ لِتَشْكُرَ مستر روتشستر على هَدِيَّتِهِ الّتي وَصَلَتْها في الصَّباحِ والّتي كانت تَرْتَديها حينَئِذٍ بالفِعْلِ : فُسْتانٌ وَرْدِيٌّ وجَوْرَبٌ حَريرِيٌّ وصَنْدَلٌ بَديعٌ . وقادَهُ ذلِكَ إلى الحَديثِ عن والِدَةِ أديل فَقالَ إنّهُ قد تَعَرَّفَ عليها في باريسَ .

ووَقَعَ في حُبِّها فأَنْفَقَ أَمْوالَهُ عليها بإسْرافٍ وحَماقَةٍ ، ولكنّ هُيامَهُ بها لم يَلْبَثْ أنْ خَبا أُوارُهُ حينَ اكْتَشَفَ أنّها غَيْرُ مُخْلِصَةٍ له . على أنّهُ أتى بِالصَّغيرَةِ أديل لِتَعيشَ في قَصْرِ ثورنفيلد ، عِنْدَما عَلِمَ أنّ أُمَّها قد رَحَلَتْ إلى إيطاليا تارِكَةً إيّاها في باريس في حالَةِ عَوَزٍ وفاقَةٍ .

بَعْدَ زُهاءِ شَهْرٍ ، وقَعَتْ لي حادِثَةٌ مُثيرَةٌ لِلْقَلَقِ ، والانْزِعاجِ ، فَبَيْنَما كُنْتُ راقِدَةً في فِراشي ذاتَ لَيْلَةٍ ، سَمِعْتُ لَغَطًا في الدَّوْرِ العُلْوِيِّ ، أَعْقَبَهُ – بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ – صَوْتُ احْتِكاكٍ خَفيفٍ بِبابِ غُرْفَةِ نَوْمي . صِحْتُ بِصَوْتٍ عالٍ : « مَنْ بالبابِ ؟ » . ولَمّا لم أَتَلَقَّ جَوابًا ، ظَنَنْتُ أنّ الكَلْبَ بيلوت يَجوسُ في الرُّواقِ أمامَ الحُجْرَةِ . وعِنْدَما شَرَعْتُ في النَّوْمِ مَرَّةً أُخْرى ، سَمِعْتُ ضِحْكَةً خَفيضَةً خارِجَ الباب . وهُرِعْتُ لأُحْكِمَ

رِتاجَهُ ، فَطَرَقَ مَسْمَعي وَقْعُ خُطُواتٍ تَنْسَحِبُ عَبْرَ الرُّواقِ ثُمّ تَصْعَدُ الدَّرَجَ . وتَبِعَ ذلِكَ صَوْتُ بابٍ يُغْلَقُ .

انْزَعَجْتُ لهذه الأَصْواتِ الغامِضَةِ فَفَتَحْتُ البابَ بِحَذَرٍ لأَتَحَرّى الأَمْرَ . وفُوجِئْتُ بِرائِحَةِ دُخانٍ قَوِيَّةٍ وبِرُؤْيَةِ شَمْعَةٍ مُشْتَعِلَةٍ مُلْقاةٍ على الأَرْضِ ، فأَصابَني ذُعْرٌ شَديدٌ . وسُرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ أنّ الدُّخانَ يَنْبَعِثُ من بابِ غُرْفَةِ مستر روتشستر المَفْتوحِ ، والّتي تَقَعُ إلى أَحَدِ جانِبَيِ الرُّواقِ قَريبًا من غُرْفَتي .





اِنْدَفَعْتُ إلى داخِلِ حُجْرَتِهِ ، فَوَجَدْتُهُ نائِمًا في فِراشِهِ والسَّتائِرُ تَشْتَعِلُ من حَوْلِهِ . وبدا وكأنَّهُ يَخْتَنِقُ بِالدُّخانِ ، فَسَكَبْتُ ماءً على فِراشِهِ كَيْما يفيقَ . وسُرْعان ما خَمَدَ اللَّهَبُ واسْتَرَدَّ الوَعْيَ في آنٍ مَعًا .

انْتَفَضَ الرَّجُلُ فَجْأَةً ، وَهُوَ يَصيحُ : « أَمَطَرٌ هذا أم فَيَضانٌ ؟ »

أَجَبْتُ بِالقَوْلِ : « كلّا ، يا سَيِّدي ، بل نارٌ ، وقد أَفْلَتَّ مِنْها لِحُسْنِ الحَظِّ . »

بِذِهْنٍ مُخْتَلِطٍ من هَوْلِ ما حَدَثَ ، خَرَجَ مستر روتشستر من فِراشِهِ ، وجَفَّفَ نَفْسَهُ ، ثم هُرِعَ إلى الدَّوْرِ العُلْوِيِّ . وسُرْعانَ ما عادَ لِيَشْكُرَني على إسْراعي لِنَجْدَتِهِ ، غَيْرَ أنَّهُ أَوْصاني بِألّا أَذْكُرَ لِأَحَدٍ شَيْئًا عَنِ الحَريقِ .

في الصَّباحِ التّالي ، خَفَّ الخَدَمُ إلى تَنْظيفِ حُجْرَةِ مستر روتشستر وإعادَةِ الحالِ فيها إلى ما كانت عليه . وعاوَنَت لِيا جْريس بوول في حِياكَةِ سَتائِرَ جَديدَةٍ لِلْغُرْفَةِ . غَيْرَ أنّ جْريس لم تَشْفِ غَليلي عِنْدَما سَأَلْتُها عن سَبَبِ الحَريقِ ، واكتَفَتْ بإسْداءِ النُّصْحِ بأنْ أُحْكِمَ رِتاجَ غُرْفَتي عِنْدَ النَّوْمِ خَشْيَةَ اللُّصوصِ الّذينَ يَسْطونَ على المَنازِلِ لَيْلًا ... بَدَتْ تلك نَصيحَةً غريبَةً مُصْطَنَعَةً ، ولقد دُهِشْتُ حِيْنَئِذٍ لِسَيْطَرَتِها التّامَّةِ على أَعْصابِها وَهِيَ تَتَحَدَّثُ ، إذ كُنْتُ أَظُنُّ أنّها هي الّتي دَبَّرَتْ حادِثَ الحَريقِ .

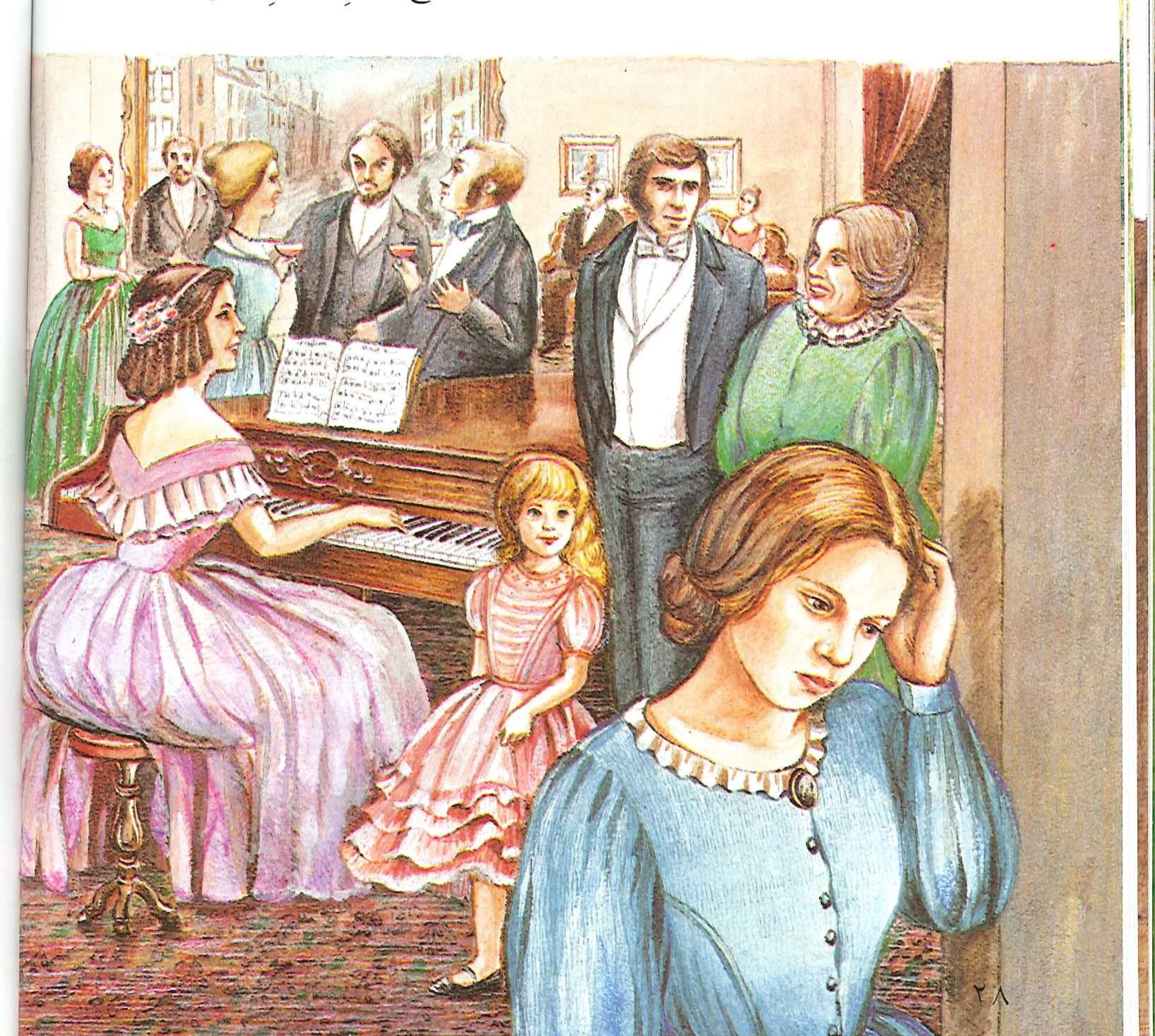
لم أُقابِلْ مستر روتشستر ثانِيَةً في ذلك اليَوْمِ ، إذ كان قد ذَهَبَ إلى حَفْلَةٍ في بَيْتِ صَديقٍ يُدْعى مستر إشتون يَبْعُدُ عن ميلكوت زُهاءَ عَشَرَةِ أَمْيالٍ ، كما أنّهُ تَعَمَّدَ أن يَبْقى بَعيدًا عن ثورنفيلد بَعْدَ ذلِكَ لِمُدَّةٍ تَجاوَزَتْ سَبْعَةَ أَيّامٍ .

قالت لي مسز فيرفاكس يَوْمَذاكَ : « أُوه ، سَوْفَ تكونُ الحَفْلَةُ لدى مستر إشتون شائِقَةً لِلْغايَةِ ، إذ سَوْفَ تَضُمُّ مسز إشتون وبَناتِها الثَّلاثَ ، وليدي إنجرام وبِنْتَيْها الجَميلَتَيْنِ بلانش وماري ، والكَثيرينَ من وُجَهاءِ المُجْتَمَعِ في هذه المِنْطَقَةِ . »

بعدَ ذلِكَ بِأُسْبوعَيْنِ، كَتَبَ مستر روتشستر إلينا مُخْبِرًا بأنَّهُ سَوْفَ يَعودُ إلى ثورنفيلد بَعْدَ ثَلاثَةِ أيّامٍ مَصْحوبًا بِمَجْموعَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الصَّديقاتِ والأَصْدِقاءِ، ومعهم خَدَمُهُم. ولكي نُعِدَّ لهذه الزِّيارَةِ اسْتَخْدَمْنا ثَلاثَ نِساءٍ أُخْرَياتٍ.

لم تُشارِكْ جريس بوول بِدَوْرٍ ما في هذه الاسْتِعْدادات، غَيْرَ أنّها كانت تَأْتي إلى المَطْبَخِ في مَواعيدَ مُنْتَظِمَةٍ لِتَحْمِلَ طَعامَها وتَعودَ به مُباشَرَةً إلى حُجْرَتِها. وفي ذاتِ يَوْمٍ سَمِعْتُ إحْدى النِّساءِ اللّائي جِئْنَنا لِلْمُعاوَنَةِ من خارِجِ القَصْرِ تَتَحَدَّثُ إلى الخادِمَةِ لِيا فتَقولُ: «أظُنُّ أنّ جريس بوول تَحْصُلُ على أجْرٍ طَيِّبٍ؟»

أجابَتْ لِيا: «أجَلْ، إنّني - شَخْصِيًّا - أتَقاضى أجْرًا لا بَأْسَ به، ولكنّها تَتَقاضى خَمْسَةَ أضْعافِهِ. على أنّ أحَدًا غَيْرَها لا يَصْلُحُ لِمِثْلِ العَمَلِ الّذي تُؤَدّيه.»



وما إنْ لَمَحَتْني لِيا واقِفَةً عن قُرْبٍ حَتّى ابْتَعَدَتْ بِسُرْعَةٍ، غَيْرَ أنّني كُنْتُ قد لَحَظْتُ المَرْأَةَ وَهِيَ تُشيرُ إليَّ من طَرْفٍ خَفِيٍّ وتَسْأَلُها في هَمْسٍ: «ألَمْ تَكْتَشِفِ السِّرَّ بَعْدُ؟»

تُرى ما هو هذا السِّرُّ الّذي لم أكْتَشِفْهُ بَعْدُ؟ ولِماذا أنا - دونَ سائِرِ أهْلِ البَيْتِ - أُمْنَعُ من مَعْرِفَتِهِ؟

حانَ يَوْمُ الخميسِ. وكان مستر روتشستر والآنِسَةُ إنجرام وشابّانِ آخرانِ أوَّلَ مَنْ وَصَلَ إلى القَصْرِ على ظُهورِ الخَيْلِ، ثُمَّ تَبِعَهُمُ الضُّيوفُ الآخرونَ في عَرَباتِهِمِ الخاصَّةِ.

أُقيمَ عَشاءٌ كَبيرٌ فاخِرٌ ذلِكَ المَساءَ، وعَزَفَتِ الموسيقى واسْتَمَرَّتْ شَطْرًا كَبيرًا مِنَ اللَّيْلِ. وفي المَساءِ التّالي تَطَرَّقَ الحَديثُ إلى الكَلامِ عن مُدَرِّساتِ الأطْفالِ، فَذَكَرَتِ الآنِسَةُ بلانش إنجرام نوادِرَ سَيِّئَةً لِلْغايَةِ عن بَعْضِ المُدَرِّساتِ اللّائي عَرَفَتْهُنَّ. عِنْدَما انْضَمَّ الرِّجالُ إلى السَّيِّداتِ بَعْدَ حينٍ، لاحَظْتُ أنّ مستر روتشستر يَقِفُ بَعيدًا عَنِ الآخَرينَ.

تَرَكَتْ تلك الحَفْلَةُ في نَفْسي انْطِباعًا لم أُصادِفْهُ من قَبْلُ بِفَخامَةِ وثَراءِ الحَياةِ الّتي يَحياها أُولئِكَ السّادَةُ الأغْنِياءُ. غَيْرَ أنّ مستر روتشستر كان شَخْصًا مُخْتَلِفًا جِدًّا عنهم، فَبِرَغْمِ انْدِماجِهِ في وَسَطِهِم وانْطِلاقِهِ بَيْنَهُمْ على سَجِيَّتِهِ، كان ذا شَخْصِيَّةٍ فَريدَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ تَطْغى على شَخصيّاتِهِم الباهِتَةِ الهَزيلَةِ، أو هذا ما أحْسَسْتُ به على الأقَلِّ. ومع أنّني كُنْتُ أعْلَمُ أنَّهُ يَجِبُ أنْ أُخْفِيَ مَشاعِري إزاءَهُ وأخْنُقَ في صَدْري كُلَّ أمَلٍ فيه، إلّا أنّني أعْتَرِفُ بأنّي قد أحْبَبْتُهُ الحُبَّ كُلَّه... ولقد أسْلَمْتُ قَلْبي لهذا الحُبِّ رَغْمَ ما أتَمَتَّعُ به من إرادَةٍ صُلْبَةٍ قَوِيَّةٍ.

ولمّا أوْشَكَ اللَّيْلُ أن يَنْتَصِفَ، أخَذَتْ بلانش إنجرام تُغْري مستر روتشستر بأنْ يُغَنِّيَ معها لَحْنًا ثُنائِيًّا حَتّى قَبِلَ. ويُؤْسِفُني أنْ أقولَ إنّ ذلِكَ قد أغْضَبَني بَعْضَ الشَّيْءِ فَقَرَّرْتُ أنْ أنْسَحِبَ بِهُدوءٍ إلى غُرْفَتي، ولكنْ - لِدَهْشَتي البالِغَةِ - وَجَدْتُ مستر روتشستر يَتْبَعُني إلى خارِجِ القاعَةِ لِيَقولَ لي قَبْلَ أنْ أصْعَدَ لِلنَّوْمِ: «تُصْبِحينَ على خَيْرٍ.»

بَعَثَتْ تلك الحَفَلاتُ المَنْزِلِيَّةُ الحَياةَ والمَرَحَ في قَصْرِ ثورنفيلد. كان الخَدَمُ يَقومونَ على رِعايَةِ الضُّيوفِ في هِمَّةٍ ونَشاطٍ، كما كان الزُّوّارُ يُرَوِّحونَ عن أَنْفُسِهِم بالأَلْعابِ المُخْتَلِفَةِ وتَمْثيلِ المَسْرَحِيّاتِ القِصارِ. وفي جَميعِ هذه الأَنْشِطَةِ، لاحَظْتُ أنّ مستر روتشستر يَكادُ لا يَفْتَرِقُ عن بلانش إنجرام. كان من الواضِحِ أنّهُ يَجِدُ لَذَّةً ما في صُحْبَتِها، وأنّها تَبْذُلُ أَقْصى ما تَسْتَطيعُ كي تَحْتَكِرَهُ لِنَفْسِها. كان الضُّيوفُ والخَدَمُ يَتَرَقَّبونَ إعلانَ خُطْبَتِهِما بَيْنَ ساعَةٍ وأُخْرى، كما كان هُناكَ شُعورٌ مُؤَكَّدٌ بَيْنَ الجَميعِ بأنّ الزَّواجَ بَيْنَهُما قادِمٌ لا مَحالَةَ... وكُنْتُ أُراقِبُهُما، في مُعْظَمِ الأُمْسِياتِ، من رُكْنِيَ الهادِئِ الّذي كُنْتُ أَجْلِسُ فيه، غَيْرَ أنّني لم أَسْتَطِعْ أن أَتَبَيَّنَ دَليلًا على حُبٍّ حَقيقِيٍّ صادِقٍ يَرْبُطُ بَيْنَهُما، فَخَلُصْتُ في نِهايَةِ الأَمْرِ إلى أنّهُما قد يَتَزَوَّجانِ لِأَسْبابٍ عائِلِيَّةٍ أو سِياسِيَّةٍ، كما كان الأَمْرُ شائِعًا في ذلِكَ الحينِ بَيْنَ أَفْرادِ مُجْتَمَعِهِما الخاصِّ.

وفي ذاتِ يَوْمٍ، بَيْنَما كان مستر روتشستر في الخارِجِ، فوجِئْنا بزِيارَةِ أَحَدِ الأَشْخاصِ. قال إنّ اسْمَهُ رِتْشارْد ماسون، وإنّهُ قادِمٌ من جُزُرِ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ، كما عَرَفْتُ من حَديثِهِ أنّهُ صَديقٌ قَديمٌ لمستر روتشستر. كانَ رتشارد ماسون رَجُلًا طَويلَ القامَةِ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ، أَنيقَ المَلْبَسِ، وكان لذلِكَ مَوْضِعَ إعْجابِ السَّيِّداتِ اللّائي يَصْغُرْنَهُ في السِّنِّ، ولكنّ شَيْئًا ما يُحيطُ بِهذا الرَّجُلِ أَثارَ نُفوري واسْتِيائي. وقُدْنا الزّائِرَ الغَريبَ إلى غُرْفَتِهِ حَيْثُ جَلَسَ يَنْتَظِرُ قُدومَ مستر روتشستر.

شَحُبَ وَجْهُ مستر روتشستر، عندما عَلِمَ بوُصولِهِ، وغَمْغَمَ: «ماسون... جُزُرُ الهِنْدِ الغَرْبِيَّةِ؟»

سأَلْتُهُ في قَلَقٍ ولَهْفَةٍ: «ماذا سَيِّدي؟ هل تَشْعُرُ بِتَعَبٍ؟»

أَجابَ، وقَدِ اسْتَبَدَّ به كَرْبٌ شَديدٌ: «لقد تَلَقَّيْتُ ضَرْبَةً عَنيفَةً، يا جين.»

ولم يَلْبَثْ أنْ تَمالَكَ نَفْسَهُ واسْتَعادَ هُدوءَهُ ظاهِرِيًّا فَقَصَدَ إلى ضُيوفِهِ، وما هي إلّا لَحَظاتٌ حَتّى سَمِعْتُهُ يَسْتَقْبِلُ مستر ماسون في وُدٍّ وحَرارَةٍ.

مَرّتِ الأَحْداثُ سِراعًا بَعْدَ ذلِكَ. وفي مُنْتَصَفِ إحْدى اللَّيالي، اسْتَيْقَظْتُ مَفْزوعَةً على دَوِيِّ صَرْخَةٍ هائِلَةٍ مُرْعِبَةٍ. ثُمّ لم أَلْبَثْ أنْ سَمِعْتُ ضَجيجَ صِراعٍ يَدورُ فوق غُرْفَتي، أَعْقَبَهُ صَوْتُ إنْسانٍ يَصيحُ في طَلَبِ النَّجْدَةِ.

فُتِحَ أَحَدُ الأَبْوابِ، وجَرى شَخْصٌ ما على الرَّدْهَةِ، ثُمّ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ ثَقيلَةٍ تَسيرُ فَوْقَ سَقْفِ حُجْرَتي. وتَناهى إلى مَسْمَعي صَوْتُ ارْتِطامٍ، أَعْقَبَهُ صَمْتٌ.

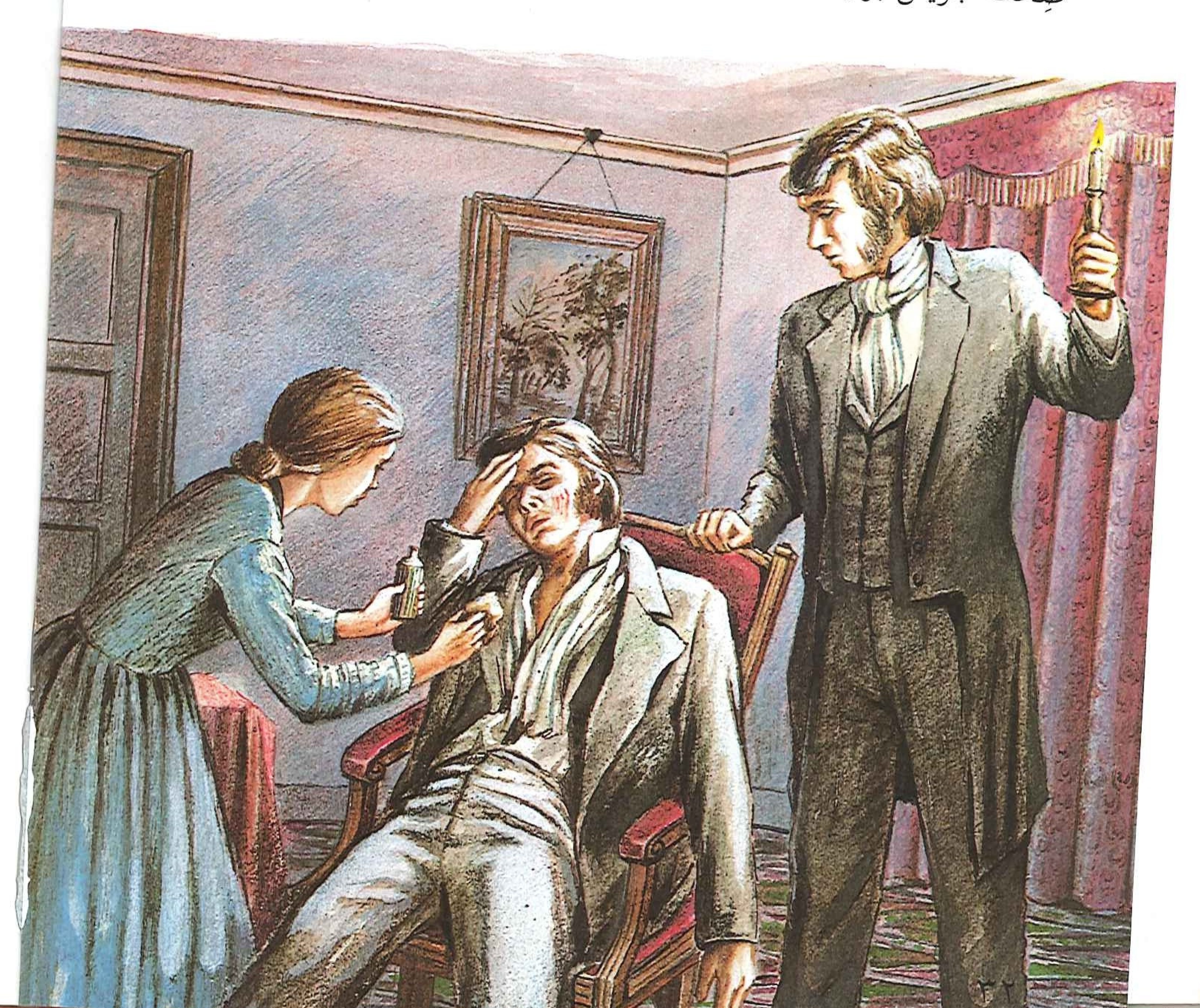
قَفَزْتُ مِنَ الفِراشِ، وارْتَدَيْتُ مَلابِسي بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ. وفي الرُّواقِ خارِجَ الحُجْرَةِ، كان مُعْظَمُ الضُّيوفِ قد تَجَمَّعوا بَعْدَ أن اسْتَيْقَظوا من نَوْمِهِم في هَلَعٍ وذُعْرٍ. ثُمّ رَأَيْتُ مستر روتشستر يَهْبِطُ الدَّرَجَ حامِلًا شَمْعَةً كَبيرَةً في يَدِهِ، وَهُوَ يَصيحُ قائِلًا: «لا تَنْزَعِجوا، فَكُلُّ شَيْءٍ على ما يُرامُ... كلُّ ما في الأَمْرِ أنّ واحِدًا مِنَ الخَدَمِ قد انْتابَهُ كابوسٌ مُريعٌ أَثْناءَ النَّوْمِ.» وأَخَذَ الرَّجُلُ يُلاطِفُ ضُيوفَهُ ويُداعِبُهُم حَتّى هَدَأَتْ مَخاوِفُهُم وعادوا إلى حُجُراتِهِم، فَتَسَلَّلْتُ أنا أَيْضًا عائِدَةً إلى حُجْرَتي.



غَيْرَ أنّ الكَرى لم يُراوِدْ جُفوني تلك اللَّيْلَةَ بَعْدَ أنْ عَصَفَ الاضْطِرابُ بِهُدوئي واتّزاني النَّفسيّ ، وهكذا جَلَسْتُ إلى النّافِذَةِ وأنا لا أزال مُرْتَدِيَةً ملابِسي . كُنْتُ على يَقينٍ من أنّ الأمْرَ أخْطَرُ من مُجَرَّدِ كابوسٍ لَيْليّ أصابَ أَحَدَ الخَدَم ... وسَمِعْتُ لِلتَّوّ قَرْعًا خَفيفًا على بابِ الحُجْرَةِ . قُلْتُ ، وأنا أرْتَعِدُ : « مَنْ بالباب ؟ »

فجاءَني صَوْتُ مستر روتشستر يَهْتِفُ في صَوْتٍ خَفيضٍ قائلًا : « أرجوكِ ، أُخْرُجي بِهُدوءٍ ، وأَحْضِري مَعَكِ ضِمادَةً من شاشٍ وبَعْضًا من أَمْلاحِ النّشادِر ... هَيّا اتْبَعيني ... »

وبِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ قادَني إلى الدَّوْرِ العُلْويّ ، حَيْثُ عَبَرَ الرُّواقَ ودَلَفَ إلى غُرْفَةٍ فَسيحَةٍ بِداخِلِها سَريرٌ كَبيرٌ وفي أَقْصاها بابٌ مُوارِبٌ . ومَشى لِيُغْلِقَ الباب ، فَسَمِعْتُ ضِحْكَةَ جْريس بوول المُدَوِّيَة .



في الطَّرَفِ الأَقْصى مِنَ الحُجْرَةِ ، كان مستر ماسون مُسْتَلْقِيًا في كُرْسيٍّ إلى جانِبِ السَّرير . كان شاحِبَ الوَجْهِ ، مُغْلَقَ العَيْنَيْنِ ، كما كان قميصُهُ مُلَطَّخًا بالدِّماء . وكانت ذِراعُهُ وكَتِفُهُ مُحاطَتَيْنِ بِالضِّمادات ، ولكنْ تَنْزِفانِ بِالدِّماءِ . طَلَبَ مِنّي مستر روتشستر أنْ أَسْتَمِرَّ في تَجْفيفِ هذه الدِّماء ، وبَيْنَما كُنْتُ أَفْعَلُ ذلِكَ ، فَتَحَ مستر ماسون عَيْنَيْهِ فقال السَّيِّدُ بِحَزْمٍ : « اِغْلِقْ فَمَكَ ، يا رتشارد ، رَيْثما أعودُ إليكَ بِالطَّبيبِ ... لا تَبُحْ بِشَيْءٍ ... وأنتِ أيضًا ، يا جين . » ثُمّ سارَ خارِجًا .

عادَ السَّيِّدُ روتشستر وبِصُحْبَتِهِ الطَّبيبُ كارتر بَعْدَ الفَجْرِ بِقَليلٍ . وقامَ الطَّبيبُ بِتَنْظيفِ ورَبْطِ جُروحِ مستر ماسون ، وكان بَعْضُها قد أصابَهُ بِنَصْلِ سِكّينٍ والبَعْضُ الآخَرُ بِفِعْلِ أسْنانٍ آدَمِيَّةٍ حادَّةٍ . ثمّ غادَرَ الطَّبيبُ الحُجْرَةَ .

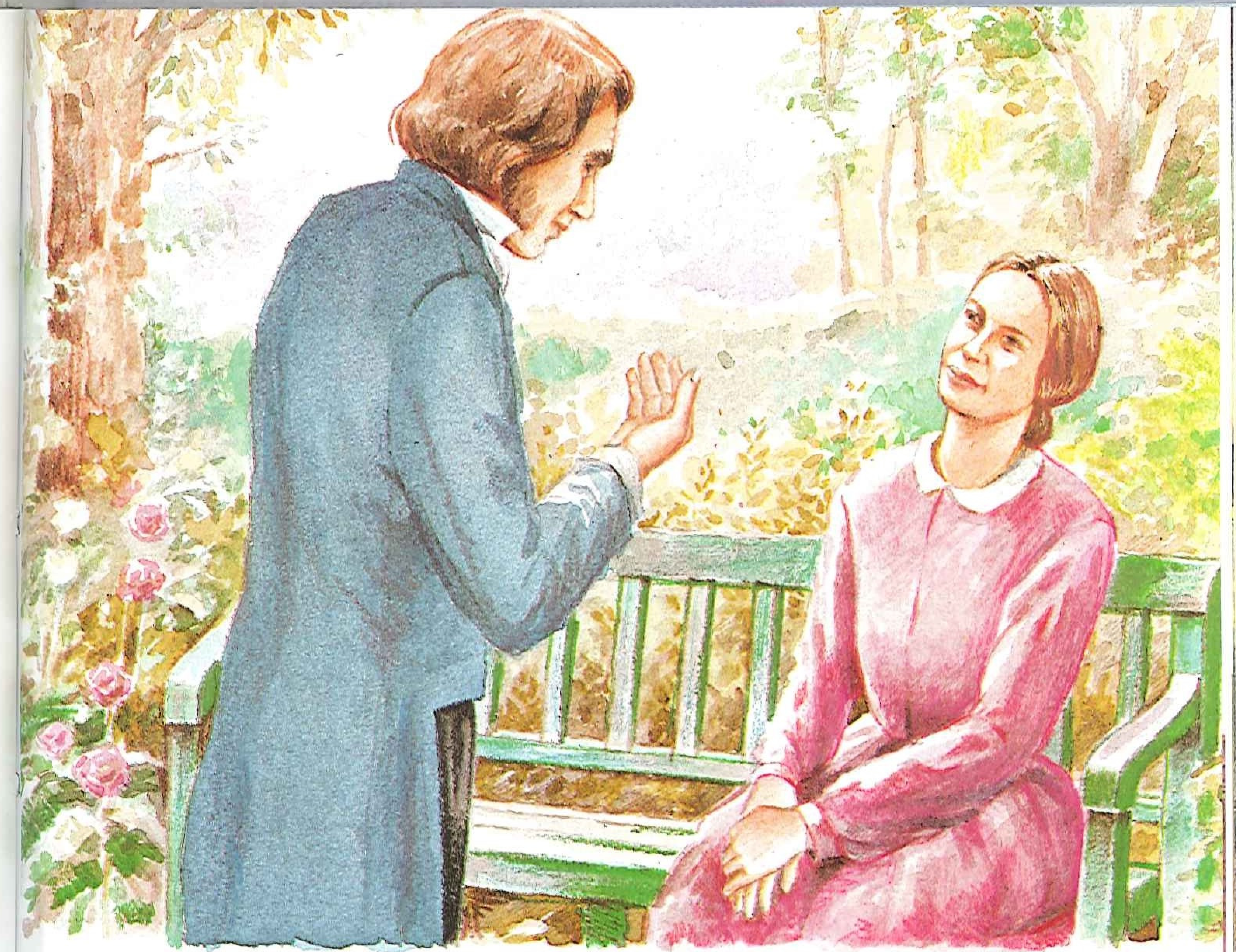
في تلك السّاعَةِ ، كانت شَمْسُ الصَّباحِ قد سَطَعَتْ دافِئَةً بَرّاقَةً ، فأَمْسَكَ مستر روتشستر بِذِراعي قائِلًا : « هَيّا لِنَتَمَشّى سَوِيًّا في الحَديقَةِ ، يا جين ... لقد أَصْبَحَ المَنْزِلُ لي بِمَثابَةِ سِجْنٍ كَريهٍ . »

بَيْنَما كُنّا نَتَجَوَّلُ عَبْرَ المُروجِ المُشْرَبَةِ بِنَدى الصَّباح ، قال مستر روتشستر في نَبْرَةٍ رَقيقَةٍ حَنونٍ : « لقد أَمْضَيْتِ ، يا عَزيزَتي جين ، لَيْلَةً لَيْلاءَ كَئيبَةً حَفَلَت بِالأَحْداثِ المُفْزِعَةِ الغَريبَةِ ... هل أَصابَكِ ، يا عَزيزَتي ، ذُعْرٌ شَديدٌ ؟ »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، يا مستر روتشستر ، فقد كُنْتُ أَتَوَقَّعُ خُروجَ شَخْصٍ ما مِنَ الحُجْرَةِ الدّاخِلِيَّةِ لِيَهْجُمَ علينا . ولكنْ أَخْبِرْني : هل نَجَوْتَ الآنَ تَمامًا مِنَ الخَطَرِ الّذي ظَنَنْتَهُ يَتَرَبَّصُ بكَ حينَ عَلِمْتَ أنّ مستر ماسون قد قَدِمَ لِيَراكَ ؟ »

قال : « آه ، لا يُمْكِنُني التَّأَكُّدُ من ذلِكَ إلّا إذا غادَرَ مستر ماسون إنْجلترا ، فَهُوَ يَسْتَطيعُ أنْ يُدَمِّرَ سعادَتي بِكَلِمَةٍ خَرْقاءَ واحِدَةٍ . »

عَجِبْتُ لِكُلِّ ما يَجْري حَوْلي : « مِمَّ يَخافُ مستر روتشستر ؟ وكيف يَسْتَطيعُ مستر ماسون أنْ يُدَمِّرَ سعادَتَهُ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ؟ هل هُناكَ سَفّاحٌ مَخْبولٌ يَمْرَحُ طَليقًا في المَنْزِلِ ؟ على أنّ الرَّجُلَ لم يَلْبَثْ أن صاحَ في مَرَحٍ وكأنّهُ يغيظُني : « ولكنْ يَجِبُ عَلَيَّ الآنَ أنْ أَذْهَبَ لِلِقاءِ عَروسيَ المُرْتَقَبَةِ ... إنّها جَميلَةٌ جِدًّا ، يا جين ، أَلَيْسَ كذلِكَ ؟ »



وبَعْدَ بِضْعَةِ أيّامٍ ، اسْتَدْعَتْني مسز فيرفاكس إلى حُجْرَتِها حَيْثُ رَأَيْتُ رَجُلًا يَجْلِسُ في انْتِظاري : كان الرَّجُلُ هو سائِقَ عَرَبَةِ مسز ريد - زَوْج صديقَتي العَزيزَةِ بِسي - وقد قَدِمَ من جيتسهيد لِيُخْبِرَني بأنَّ مسز ريد مَريضَةٌ وتَرْغَبُ في رُؤْيَتي .

وهناك عَلِمْتُ أنّ عَمّي - جون إير - الّذي زارَ جيتسهيد لِيَراني قَبْلَ رَحيلِهِ إلى مديرا مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ ، كان قد كَتَبَ لمسز ريد خِطابًا بَعْدَ تلك الزِّيارَةِ لِيُخْبِرَها بأنَّهُ يَرْغَبُ في أنْ يَتَبَنّاني ويَتْرُكَ كُلَّ ثَرْوَتِهِ لي . وبِدافِعٍ من حِقْدِها عَلَيَّ رَدَّتْ تقولُ بأنّني مِتُّ خِلالَ وَباءِ التّيفوسِ الّذي اجْتاحَ لووُد .

كانت مسز ريد - حينَ أَرْسَلَتْ في طَلَبي - على وَشْكِ أنْ تَموتَ . والحَقُّ أنّها ظَلَّتْ تَكْرَهُني حَتّى آخِرِ عُمْرِها ، وتُدَبِّرُ لِحِرْماني مِنَ الثَّرْوَةِ الّتي هَبَطَتْ عَلَيَّ مِنَ السَّماءِ غَيْرَ أنّها وَجَدَتْ - في لَحَظاتِها الأخيرَةِ أنْ تُسَلِّمَني خِطابَ العَمِّ ، فأَعْطَتْني إيّاهُ . ثُمَّ لم تَلْبَثْ أنْ أَسْلَمَتِ الرّوحَ فَجْرَ اليَوْمِ التّالي .

كانَتْ رِحْلَةُ العَوْدَةِ إلى ثورنفيلد مُضْجِرَةً مُمِلَّةً ، ولم أَسْتَطِعْ خِلالَها أنْ أَكُفَّ نَفْسي عَنِ التَّفْكيرِ في مستر روتشستر وبلانش إنجرام . وأَخَذْتُ أَتَساءَلُ في أعْماقي : هل بَدَأْتُ أُعاني من وَخْزِ الغَيْرَةِ اللّاذِعِ ؟

لم تَصِلْ إلى سَمْعي أَنْباءٌ أو إشاعاتٌ عن زَواجِ سَيِّدي المُرْتَقَبِ ، فَشَعَرْتُ بِقَدْرٍ كَبيرٍ مِنَ الارْتِياحِ . وكان السَّيِّدُ شَديدَ المَرَحِ ، على خِلافِ العادَةِ ، وكان يَنْشُدُ صُحْبَتي في مُعْظَمِ الأَوْقاتِ . لم أَرَهُ أَرَقَّ معي أو أَحَنَّ عَلَيَّ كما رَأَيْتُهُ حِينَئِذٍ .

وعادَ الصَّيفُ ، وعادَتْ بَهْجَتُهُ إلى ثورنفيلد . ولَطالَما سَعِدْتُ حِينَئِذٍ بِالتَّجْوالِ في الحَديقَةِ خِلالَ الأُمْسِياتِ الرَّطْبَةِ . وفي إحْدى هذه الأُمْسِياتِ كان يَصْحَبُني مستر روتشستر ، فهَمَسَ لي قائِلًا : « ثورنفيلد مَكانٌ بَديعٌ في الصَّيفِ ، أَلَيْسَ كذلِكَ ؟ ... يَبْدو أنَّهُ قد بَدَأَ يَروقُ لكِ الآنَ . »

أَجَبْتُ : « أَجَلْ ، يا سَيِّدي ، لقد راقَ لي بالفِعْلِ . »

أَرْدَفَ : « يَبْدو كذلِكَ أنَّكِ تُحِسّينَ بِمَشاعِرَ حَميمَةٍ تجاهَ مسز فيرفاكس وتِلْميذَتِكِ : أَديل . »

قُلْتُ : « بِالتَّأْكيدِ ، يا سَيِّدي ، فأنا أُكِنُّ مَشاعِرَ الوُدِّ الصّادِقِ لِكِلَيْهِما . »

قال ، وَهُوَ يَلْتَصِقُ بي فَجْأَةً ، ويُقَبِّلُني : « أَنْصِتي ، يا جين ... إنّني أَرْغَبُ في الزَّواجِ منكِ ، وأُقَدِّمُ لكِ الآنَ قَلْبي بِالكامِلِ ، مع نِصْفِ أَمْلاكي . »

كانَتِ المُفاجَأَةُ مُذْهِلَةً . غَيْرَ أنّني لم أَلْبَثْ أنْ قُلْتُ في تَلَعْثُمٍ :

- أنت تَمْزَحُ يا سَيِّدي ، أو لَعَلَّكَ تَسْخَرُ بي .

فأَجابَ ، وقد تَهَدَّجَ صَوْتُهُ بِعاطِفَةٍ جارِفَةٍ : « كَلّا ، يا جين ، لم أَكُنْ جادًّا في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ أَكْثَرَ جِدِّيَّةً . أنا لم أُحِبَّ الآنِسَةَ إنجرام قَطُّ ، وإنّما أنتِ الّتي أَحْبَبْتُها فَقَطْ ، وأنتِ هي الّتي أُريدُها الآنَ زَوْجَةً لي . نادِيني بِاسْمي المُجَرَّدِ : إدوارد ، وقولي لي : سَوْفَ أَقْبَلُ الزَّواجَ منكَ ، يا إدوارد . »

قُلْتُ بِابْتِسامَةٍ مُرْتَعِشَةٍ : « يُسْعِدُني الزَّواجُ منكَ ، يا إدوارد . »

في الصَّباحِ التّالي كُنْتُ لا أزالُ أَسْبَحُ في لُجَجِ السَّعادَةِ الغامِرَةِ. وأَثْناءَ النَّهارِ، أَخْبَرَني مستر روتشستر أنّ زِفافَنا سَوْفَ يَتِمُّ خِلالَ أَرْبَعَةِ أسابيعَ، وأنّنا سَوْفَ نَقْضي شَهْرَ العَسَلِ في أُوروبّا، وأنّهُ يَرْغَبُ – لهذه المُناسَبَةِ – في اصْطِحابي إلى ميلكوت لِشِراءِ مُجَوْهَراتٍ ومَلابِسَ جَديدَةٍ لي.

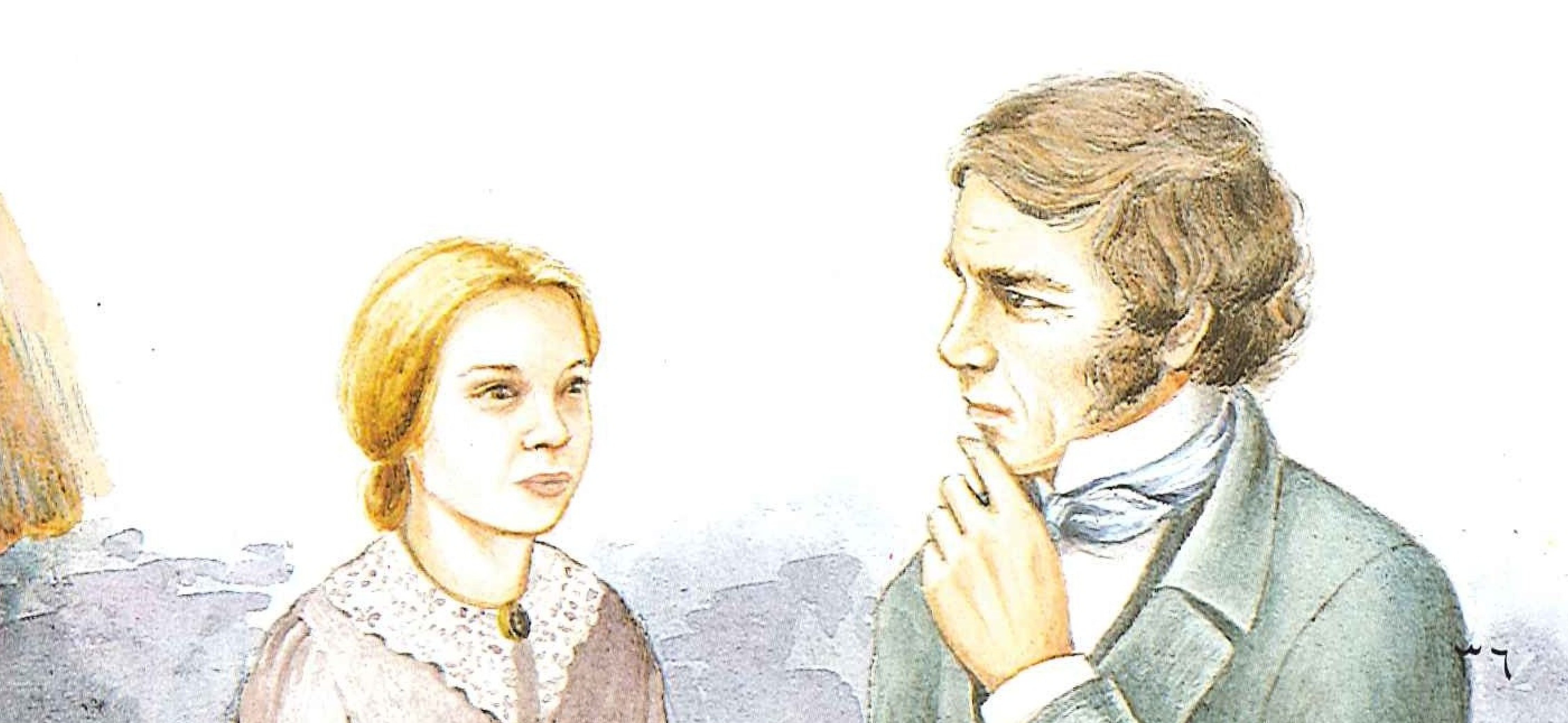
وهَمَسَ في وَجْدٍ قائِلًا: «سَنَجولُ حَيْثُ جُلْتُ في باريسَ وروما ونابولي من قَبْلُ – ولكنْ هذه المَرَّةَ سوف يَكونُ مَعي مَلاكي الحارِسُ.»

طَلَبْتُ إلى مستر روتشستر أن يُفْضِيَ لمسز فيرفاكس بِكُلِّ شَيْءٍ – ولقد أَنْفَذَ ذلِكَ بالفِعْلِ. وما إنْ رَأَيْتُها بَعْدَ حينٍ حَتّى بَدَتْ واجِمَةً تَنْطِقُ عَيْناها بِنَظَراتِ الهَلَعِ والتَّحْذيرِ وكأنّها تُخْفي في أَعْماقِها سِرًّا دَفينًا، فلم أَدْرِ إلّا والدُّموعُ تَتَساقَطُ من عَيْنَيَّ.

مَرَّتِ الأَسابيعُ تَحُفُّ بها طُيوفُ السَّعادَةِ البَهيجَةِ إلى أنْ حَلَّ اليَوْمُ السّابِقُ على يَوْمِ الزِّفافِ. وكنت قد عَلَّقْتُ ثَوْبَ زِفافي الأَبْيَضَ في دولابِ المَلابِسِ. بَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ في مساءِ ذلِكَ اليَوْمِ، لاحَظَ مستر روتشستر أنّني قَلِقَةٌ ومُهْتاجَةٌ بَعْضَ الشَّيْءِ، فَسَأَلَني قائِلًا: «ماذا بِكِ، يا جين؟ هَل حَدَثَ شَيْءٌ؟»

أَجَبْتُ: «صَحَوْتُ لَيْلًا على ضَوْءٍ ظَنَنْتُهُ ضَوْءَ النَّهارِ، فرَأَيْتُ امْرَأَةً بَشِعَةَ المَنْظَرِ تَقِفُ داخِلَ الحُجْرَةِ مُمْسِكَةً بِشَمْعَةٍ كَبيرَةٍ في يَدِها النَّحيلَةِ المَعْروقَةِ.»

قاطَعَني مستر روتشستر قائِلًا: «أوه، لَعَلَّها كانت لِيا أو صوفي.»



صِحْتُ: «كَلّا، فأنا لم أَرَ هذه المَرْأَةَ أبدًا من قَبْلُ. كانت سَمْراءَ طَويلَةً، ولكنْ مُنْحَنِيَةَ القامَةِ، وكانت ذاتَ شَعْرٍ طَويلٍ فاحِمٍ وشَفَتَيْنِ أُرْجُوانِيَّتَيْنِ وعَيْنَيْنِ مُحْتَقِنَتَيْنِ بالدِّماءِ... يا لَهُ من مَنْظَرٍ بَشِعٍ لا يُنْسَى.»

«كَلّا، كَلّا، يا جين.» قالَ مستر روتشستر في إصْرارٍ، «لا بُدَّ وأنّهُ كان حُلْمًا آخَرَ، فاخْتَلَطَ عليكِ الأَمْرُ.»

فأَجَبْتُ: «كَلّا، بل كانَ حَقيقَةً واقِعَةً.. أنا واثِقَةٌ من ذلِكَ.»

كُنْتُ عازِمَةً على إخْبارِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ.. وكان عَلَيَّ إقْناعُهُ بما رَأَيْتُ.

وأَرْدَفْتُ قائِلَةً: «كانَت تَضَعُ نِقابَ زِفافي على رَأْسِها. ولمّا رَأَتْني أَنْظُرُ إليها، نَزَعَتْهُ عنها، ومَزَّقَتْهُ إلى نِصْفَيْنِ، وأَلْقَتْه على الأَرْضِ، ووَطِئَتْه بِقَدَمِها. ثُمّ دَفَعَت بالشَّمْعَةِ قَريبًا مِنّي، وأَطْفَأَتْها أمامَ عَيْنَيَّ... هذا كُلُّ ما أَذْكُرُهُ، لأنّ الرُّعْبَ والفَزَعَ اللَّذَيْنِ اجْتاحاني حِينَئِذٍ قد أَفْقَدانِي الوَعْيَ.»



سَأَلَني مستر روتشستر بقَلَقٍ: « مَنْ كان هُناكَ عِنْدَما أَفَقْتِ، يا جين؟ »

أَجَبْتُ: « لا أَحَدَ، يا سَيِّدي. كان النَّهارُ قد طَلَعَ فَظَنَنْتُ أَنَّني كُنْتُ أَحْلُمُ، إلى أنْ رَأَيْتُ خِماري مَطْروحًا على الأَرْضِ ومُمَزَّقًا إلى نِصْفَيْنِ. »

ارْتَجَفَ مستر روتشستر. ولم يَلْبَثْ أنْ صاحَ قائِلًا في حَرارَةٍ: « شُكْرًا لله أنّ الأَمْرَ لم يَتَجاوَزِ الخِمارَ... لا شَكَّ أنّ الفاعِلَةَ هي جْريس بوول. »

قَضَيْتُ تلك اللَّيْلَةَ مع أديل وصوفي في غُرْفَةِ الأَطْفالِ بَعْدَ أنْ أَحْكَمْنا رِتاجَ البابِ مِنَ الدّاخِلِ. وبَعْدَ نَوْمٍ مَشوبٍ بالأَرَقِ صَحَوْتُ تُداعِبُني مَشاعِرُ الغِبْطَةِ والسَّعادَةِ، ولكنّ هاجِسًا في أَعْماقي كان يُنْذِرُني بِشَرٍّ مُسْتَطيرٍ... بَدا وكأنّ ذلك اليَوْمَ سَيَكونُ غَريبًا حافِلًا في تاريخِ أيّامِ الزِّفافِ!

سِرْتُ بِصُحْبَةِ مستر روتشستر إلى الكَنيسَةِ دونَما رِفاقٍ. على أنّنا رَأَيْنا عِنْدَ وُصولِنا إلى الكَنيسَةِ رَجُلَيْنِ غَريبَيْنِ يَتَجَوَّلانِ في فِنائِها. وفُوجِئْنا بِهذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَتْبَعانِنا إلى الدّاخِلِ، ويَجْلِسانِ لِمُتابَعَةِ مَراسِمِ الزِّفافِ. وفَجْأَةً صاحَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: « لا تُتِمَّ هذا الزَّواجَ أَيُّها القَسُّ! هُناكَ مانِعٌ شَرْعِيٌّ يَحولُ دونَ ذلِكَ. »


سُرْعانَ ما أَعْلَنَ الرَّجُلُ الغَريبُ قائِلًا: « هذا الزَّواجُ باطِلٌ قانونًا، لأنّ لِمستر روتشستر زَوْجَةً أُخْرى ما زالَتْ على قَيْدِ الحَياةِ. »

أصابَتْني زَلْزَلَةٌ عَنيفَةٌ هَزَّتْني مِنَ الأَعْماقِ. وقَبَضَ مستر روتشستر على ذِراعي بِشِدَّةٍ لِيَحولَ دونَ أنْ أَتَهاوى إلى الأَرْضِ.

وسَمِعْتُ الرَّجُلَ يَقولُ في هُدوءٍ: « أنا مُحامٍ من لندن واسْمي: برجز، وقد وَكَّلَني في هذه القَضِيَّةِ شَخْصٌ يَهُمُّهُ الأَمْرُ. »

ثُمّ أَخْرَجَ من جَيْبِهِ وَثيقَةً وقَرَأَها بِصَوْتٍ عالٍ. كانت تَحْمِلُ تَوْقيعَ رتشارد ماسون، وتُفيدُ بأنّ أُخْتَهُ بِرْتا ماسون قد تَزَوَّجَتْ من إدوارد فيرفاكس روتشستر صاحِبِ قَصْرِ ثورنفيلد في إنجلترا، وأنّ هذه الزِّيجَةَ قد عُقِدَتْ بِبَلْدَةِ جامايكا الإسْبانِيَّةِ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

عِنْدَئِذٍ رَدَّ مستر روتشستر بنبْرَةٍ ساخِرَةٍ: « هذه الوَثيقَةُ تَدُلُّ على أنّني تَزَوَّجْتُ من بِرْتا ماسون في ذلِكَ التّاريخِ، وهُوَ ما قد حَدَثَ بِالفِعْلِ، ولكنّها لا تُشيرُ إلى أنّ زَوْجَتي ما زالَتْ على قَيْدِ الحَياةِ. »



في تلك اللَّحْظَةِ ، ظَهَرَ الرَّجُلُ الغَريبُ الثّاني الّذي كان مُخْتَبِئًا خَلْفَ أَحَدِ الأَعْمِدَةِ . وجَحَظَتْ عَيْنا مستر روتشستر وارْتَجَفَ ، ثُمّ اسْتَنَدَ إلى ذِراعي وَهُوَ يَنْطِقُ لاهِثًا باسْمِ الرَّجُلِ في ذُهولٍ : « رتشارد ماسون ! »

أجابَ ماسون قائِلًا : « أَجَلْ ، يا إدوارد روتشستر ، أنا رتشارد ماسون . وأُعْلِنُ أنّني قد رَأَيْتُ أُخْتي : برتا – الّتي هي زَوْجَتُكَ – عِنْدَما زُرْتُكَ في أبريلَ الماضي . كانت حَبيسَةَ غُرْفَتِها ، وكانت تَقومُ على رِعايَتِها خادِمَتُكَ : جْريس بوول . »

سادَ الحاضِرينَ سُكونٌ مُطْبَقٌ وكأنَّهُم أُصيبوا بِضَرْبَةٍ قاضِيَةٍ .

وقف مستر روتشستر وقالَ بِصَوْتٍ حَزين : « أَعْتَرِفُ بأنّني تَزَوَّجْتُ برتا ماسون مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا ، ولكِنَّني خُدِعْتُ في هذا الزَّواجِ . لم يُخْبِرْني أَحَدٌ قَطُّ بأنَّ في عائِلَةِ ماسون داءَ الجنونِ ، فأُمُّ زَوْجَتي كانت مُخْتَلَّةَ العَقْلِ ، ولقد وَرِثَتْ عنها ابْنَتُها بِرْتا هذا الدّاءَ الخَطيرَ . والآنَ ، أَيُّها السّادَةُ ، أَدْعوكُمْ إلى زِيارَةِ مَريضَتي الّتي وضَعْتُها في رِعايَةِ جْريس بوول للاطِّلاعِ على الحَقيقَةِ بِأَنْفُسِكُمْ . وعليكم عِنْدَئِذٍ أَنْ تَقْضوا بِأَنْفُسِكُمْ ما إذا كان يَحِقُّ لي فَسْخُ هذه الزّيجَةِ أم لا – وأنا راضٍ بِقَضائِكُمْ . »
واصْطَحَبَنا مستر روتشستر بعد ذلِكَ إلى القَصْرِ ، حَيْثُ قادَنا إلى الدَّوْرِ العُلْويِّ قائِلًا لماسون :

« أنت تَعْرِفُ هذا المَكانَ جَيِّدًا ، يا ماسون . سَوْفَ نَدْلُفُ الآنَ إلى الحُجْرَةِ حَيْثُ طَعَنَتْكَ ، ونالَتْ عَضّاتُها من لَحْمِكَ . »

وفَتَحَ البابَ لِيَكْشِفَ لنا عن جْريس بوول جالِسَةً إلى جِوارِ المِدْفَأَةِ . وفي الطَّرَفِ الأَقْصى لِلْحُجْرَةِ رَأَيْنا مِسْخًا آدَمِيًّا شائِنَ المَنْظَرِ لامْرَأَةٍ مُحْدَوْدِبَةٍ ، تَخْطو تارَةً إلى الأَمامِ وتارَةً إلى الخَلْفِ ، مِثْلَ حَيَوانٍ مُفْتَرِسٍ يَجوسُ في قَفَصِهِ . وكانت كُتْلَةٌ مِنَ الشَّعْرِ الأَسْوَدِ الكَثيفِ تُخْفي عَنّا وَجْهَها .

« كيف حالُ مَريضَتِكِ اليَوْمَ ؟ » – سأل مستر روتشستر ، وَهُوَ يُحاوِلُ التَّحَكُّمَ في مَشاعِرِهِ .

« لم تَتَجاوَزِ الحَدَّ بَعْدُ . » أَجابَتْ جْريس بوول « ما زالَتْ فَظَّةً وعَضّاضَةً ، ولكِنْ يُمْكِنُ كَبْحُ جِماحِها . »



وانْتَصَبَ المِسْخُ الآدَمِيُّ مُتَنَبِّهًا .

صاحَتْ جْريس بوول : « لقد سَمِعَتْكَ . خُذْ حَذَرَكَ فقد تَنْقَضُّ عَلَيْكَ في أَيِّ لَحْظَةٍ . »

وهذا ما حَدَثَ بالفِعْلِ ، إذ سُرْعانَ ما وَثَبَتِ المَرْأَةُ المَخْبولَةُ على مستر روتشستر ، وأَخَذَتْ تَخْمِشُهُ وتَعَضُّهُ . وجاهَدَ الرَّجُلُ لِيُخَلِّصَ نَفْسَه منها .

« تِلْكُمْ ، أَيُّها السّادَةُ ، هي زَوْجَتي . » قال مستر روتشستر بِرَنَّةِ أَسًى عَميقٍ بَيْنَما أخَذَ يُسَوّي شَعْرَهُ الأَشْعَثَ ومَلابِسَهُ المُتَغَضِّنَةَ .

أَصْبَحْتُ كَسيرَةَ القَلْبِ مُحَطَّمَةَ الفُؤادِ بَعْدَ أَنْ دَهَمَتْني تلك الأَحْداثُ ، وكأَنّها قَدَرٌ مَأْساوِيٌّ غاشِمٌ عَصَفَ بِكُلِّ آمالي وأَحْلامي .

عَلِمْتُ فيما بَعْدُ بأَسْبابِ ما حدَثَ يَوْمَ زِفافي المَشْئوم: فلقد قامَ مستر ماسون مُؤَخَّرًا بزيارَةِ عَمّي – جون إير – في مديرا، فعَرَفَ من خِطابٍ كُنْتُ قد أَرْسَلْتُهُ له أنّني سَوْفَ أَتزَوَّجُ مستر روتشستر في القَريبِ العاجِلِ. ولمّا عَلِمَ العَمُّ من ضَيْفِهِ مستر ماسون بِزَواجِ مستر روتشستر السابِقِ، سارَعَ بإرْسالِ الأَخيرِ إلى إنجلترا لِيُوقِفَ زِفافي قانونًا عن طَريقِ مُحاميه: مستر برجز.

عِنْدَئِذٍ عُدْتُ إلى غُرْفَتي وأَغْلَقْتُ البابَ وَرائي، ونَضَوْتُ عنّي ثَوْبِيَ الأَنيقَ ولَبِسْتُ رِدائيَ الأَسْوَدَ البَسيطَ، ثُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسي لأَحاسيسِ اليَأْسِ والقُنوطِ... لقدِ انْهارَتْ كُلُّ آمالي وأَحْلامي، وغَدَتْ حَياتي خاوِيَةً بلا غايَةٍ.

مَكَثْتُ بِمُفْرَدي وَقْتًا طَويلًا، وأَخَذْتُ أُفَكِّرُ في مُسْتَقْبَلي بعُمْقٍ، فَرَأَيْتُ أَنّني يَجِبُ أن أُغادِرَ ثورنفيلد في أَقْرَبِ فُرْصَةٍ، ولكنْ بَعْدَ أنْ أرى مستر روتشستر أَوَّلًا. وشَعَرْتُ لَدى هذا الخاطِرِ بغصَّةٍ شَديدَةٍ.

فَتَحْتُ البابَ، فكِدْتُ أَقعُ فَوْقَهُ.. كان يَجْلِسُ في غَمٍّ واكْتِئابٍ على مَقْعَدٍ خارِجَ حُجْرَتي. لم أَكُنْ قد عَفَوْتُ عنه بَعْدُ بِاللِّسانِ، إلّا أنّ قَلْبي كان قد سامَحَهُ بالفِعْلِ.

قال: «هذه المَرْأَةُ قد جَلَبَتِ اللَّعْنَةَ على هذا البَيْتِ. بَيْدَ أنّني سَوْفَ أَحْسِمُ الأَمْرَ إلى الأَبَدِ. غدًا سَوْفَ نُغادِرُ ثورنفيلد، أنتِ وأنا بِمُفْرَدِنا، وسَوْفَ أُلْحِقُ أديل بِمَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ بَعيدَةٍ.»

صِحْتُ في غَضَبٍ وانْفِعالٍ: «كَلّا، كَلّا، هذا لنْ يَحْدُثَ... يَجِبُ أنْ نَنْفَصِلَ... سَوْفَ أُغادِرُ ثورنفيلد بِمُفْرَدي... لنْ يَعوقَني عنْ ذلِكَ شَيْءٌ.»

حاوَلَ مستر روتشستر أنْ يَثْنِيَني عن عَزْمي بِكُلِّ سُبُلِ المُجادَلَةِ والإقْناعِ. قال لي أنّ والِدَهُ وأَخاهُ الأَكْبَرَ قد دَبَّرا أَمْرَ زَواجِهِ من برتا ماسون لِلْحُصولِ على ثَرْوَتِها، ولم يَكُنْ قد رَأى أُمَّها المَجْنونَةَ قَطُّ قَبْلَ الزَّواجِ، أو كانت لَدَيْهِ أَدْنى فِكْرَةٍ عن حالَةِ ابْنَتِها المُشابِهَةِ.

ثُمَّ أَرْدَفَ أنّهُ سُرْعانَ ما ظَهَرَتْ دَلائِلُ مَرَضِها الخَطيرِ بَعْدَ الزَّواجِ، فاضْطُرَّ آخِرَ الأَمْرِ إلى أنْ يَعْهَدَ بها إلى جْريس بوول لِتَقومَ بِحِراسَتِها والعِنايَةِ بها، في حين هَجَرَ هو القَصْرَ الّذي لم يَعُدْ يَجِدُ فيه إلّا التَّعاسَةَ والشَّقاءَ، وأَخَذَ يَجولُ في أَقْطارٍ أَجْنَبِيَّةٍ بَعيدَةٍ بَحْثًا عَنِ السَّعادَةِ، أو نُشْدانًا لِلنِّسْيانِ.

ثُمَّ عادَ إلى بَيْتِهِ مُنْهَكًا مَكْدودًا في نِهايَةِ المَطافِ، بَعْدَ أنْ أَدْرَكَ أنّهُ كان ضَحِيَّةً لِلْوَهْمِ والانْخِداعِ... عادَ لِيَجِدَ بَيْنَ جُدْرانِهِ – كما قال – مَنْ بَدَّلَتْ من خَوْفِهِ أَمْنًا، ومن حُزْنِهِ بَهْجَةً وسُرورًا: المُعَلِّمَةَ الشّابَّةَ الّتي سَوْفَ يَجِدُ في قُرْبِها كُلَّ هَناءٍ وسَعادَةٍ.





عَزَمْتُ على الرَّحيلِ فَوْرًا قَبْلَ أنْ تَهِنَ عَزيمَتي. فركِبْتُ عَرَبَةَ المُسافِرينَ وطَلَبْتُ مِنَ السّائقِ أنْ يُنْزِلَني في أَبْعَدِ مَكانٍ. بَعْدَ ساعاتٍ وَجَدْتُ نَفْسي وَحيدَةً في أَطْرافِ قَرْيَةٍ بَعيدَةٍ. كانَ المَطَرُ يَتَساقَطُ بقُوَّةٍ. وكُنْتُ وَحيدَةً وبائِسَةً وجائِعَةً. فتَوَجَّهْتُ إلى مَنْزِلٍ صَغيرٍ أَحْتَمي به.

نَظَرْتُ من خِلالِ النّافِذَةِ العارِيَةِ مِنَ السَّتائِرِ فَرَأَيْتُ فَتاتَيْنِ تَجْلِسانِ إلى جِوارِ المِدْفَأَةِ، وأَمامهما كَلْبٌ مُسْتَلْقٍ على البِساطِ المُمْتَدِّ تَحْتَ أَقْدامِهِنّ. قَرَعْتُ البابَ بِخِفَّةٍ فَفَتَحَتْهُ الخادِمَةُ، ولكنْ سُرْعانَ ما أَغْلَقَتْهُ في وَجْهي عِنْدَما رَأَتْني أَلْتَمِسُ المَأْوى والطَّعامَ.

سَقَطْتُ مُنْهارَةً مِنَ الجوعِ والتَّعَبِ على عَتَبَةِ البابِ. ونَطَقْتُ في وَهَنٍ بهذه الكَلِماتِ: «سَأَموتُ حَتْمًا.. سَأَموتُ حَتْمًا»، وإذا بِصَوْتِ رَجُلٍ مِنَ الخَلْفِ يَقولُ: «كُلٌّ مِنّا سَيَموتُ يَوْمًا ما، ولكنْ حاشا لنا أنْ نَدَعَكِ تَموتينَ على عَتَباتِ الدّارِ وأنتِ تَلْتَمِسينَ المَأْوى في لَيلٍ عاصِفٍ مَطيرٍ.»

طَرَقَ الرَّجُلُ البابَ، ولمّا فَتَحَتْهُ الخادِمَةُ هذه المَرَّةَ صاحَتْ مُهَلِّلَةً في تَرْحابٍ: «أَهْلًا، مستر سانت جون، لا بُدَّ أنَّكَ قد عانَيْتَ كَثيرًا مِنَ البَرْدِ والمَطَرِ في الخارِجِ.» لكنَّها لم تَلْبَثْ أنْ لَمَحَتْني فنَظَرَتْ إليَّ شَذَرًا وقالَتْ: «أما زِلْتِ واقِفَةً هُنا أيَّتُها الشَّحّاذَةُ التَّعِسَةُ؟... أُغْرُبي عن وَجْهي!»

«مَهْلًا، يا حَنّه»، قال الرَّجُلُ، «فرُبَّما كانَتِ الفَتاةُ في حاجَةٍ إلى النَّجْدَةِ والغَوْثِ.. اِتْبَعيني إلى الدّاخِلِ، يا فَتاتي.»

تَبِعْتُهُ إلى الدّاخِلِ في خُطُواتٍ مُرْتَعِشَةٍ مُتَرَنِّحَةٍ، وتَهالَكْتُ على أَحَدِ المَقاعِدِ، وقَدَّمَتْ ليَ الفَتاتانِ شَيْئًا مِنَ الخُبْزِ واللَّبَنِ، وعَرَفْتُ فيما بَعْدُ أنَّ اسْمَيْهِما: ديانا وماري. وعِنْدَما تَمالَكْتُ قُوايَ بَعْضَ الشَّيْءِ، سَأَلَني مستر سانت جون عن قِصَّتي.

ادَّعَيْتُ أنّ اسْمي جين إيليوت، غَيْرَ أنَّني لم أَسْتَطِعْ إخْبارَهُم بأَكْثَرَ من ذلكَ. وعِنْدَما تَقَدَّمَ بنا اللَّيْلُ – وكُنْتُ قد أَخَذْتُ حِينَئِذٍ قِسْطًا أَكْبَرَ مِنَ الرّاحَةِ وتناوَلْتُ قَدْرًا أَوْفَرَ مِنَ الطَّعامِ – قادَتْني السَّيِّدَتانِ إلى الطّابِقِ العُلْويِّ ووَضَعَتاني في فِراشٍ جافٍّ ودافِئٍ.



غَشِيَتْني الحُمّى لِمُدَّةِ ثلاثَةِ أيّامٍ وثلاثِ لَيالٍ مُتَتالِيَةٍ لم أقْوَ خِلالَها على الكَلامِ. وكانَتْ ديانا وماري تَجْلِسانِ إلى جانِبِ سَريري بِضْعَ ساعاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، كما صَعِدَ مستر سانت جون إلى غُرْفَةِ النَّوْمِ مَرَّتَيْنِ لِيَراني.

في اليَوْمِ الرّابِعِ اسْتَرَدَدْتُ عافِيَتي إلى حَدٍّ ما، ولاحَظْتُ أنّ مَلابِسي قد غُسِلَتْ وكُوِيَتْ وأصْبَحَتْ مُعَدَّةً لأنْ أرْتَدِيَها في أيِّ وَقْتٍ أشاءُ.

ولَقَدِ ارْتَدَيْتُها بالفِعْلِ، وهَبَطْتُ إلى الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ وأنا لا أزالُ أشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الضَّعْفِ والوَهَنِ. وكانت حَنّة واقِفَةً في غُرْفَةِ المَطْبَخِ تَصْنَعُ بَعْضَ الخُبْزِ والكَعْكِ. وعَرَضْتُ عليها أنْ أُساعِدَها في الأعْمالِ المَنْزِلِيَّةِ فرَفَضَتْ بِوُدٍّ وحَنانٍ.

وشَرَعَتْ تُحَدِّثُني عَنِ العائِلَةِ الّتي تُضيفُني، فقالَتْ إنَّهُم يُدْعَوْنَ بعائِلَةِ رِڤرْز، وإنَّهُمْ يَمْلِكونَ هذا البَيْتَ الواقِعَ عِنْدَ طَرَفِ المُسْتَنْقَعِ مُنْذُ أكْثَرَ من مائتَيْ عامٍ. وأضافَتْ أنّ مستر سانت جون رِڤرْز هُوَ قَسُّ قَرْيَةِ مورتون – وهِيَ قَرْيَةٌ مُجاوِرَةٌ تَقَعُ على بُعْدِ ثَلاثَةِ أمْيالٍ – وأنَّهُ يَعيشُ في البَيْتِ المُخَصَّصِ لِلكاهِنِ هُناكَ، وأنّ ديانا وماري أُخْتاهُ وتَشْتَغِلانِ مُعَلِّمَتَيْ أطْفالٍ، وأنَّهُما تَحْضُرانِ إلى بَيْتِ العائِلَةِ هذا للاِجْتِماعِ بِأخيهِما بَيْنَ حينٍ وآخَرَ.

في المَساءِ تَحَدَّثَ إليَّ مستر سانت جون رِڤرْز، وطَرَحَ عَلَيَّ بِضْعَةَ أسْئِلَةٍ. وأجَبْتُهُ في حَذَرٍ واقْتِضابٍ دونَ أنْ أخوضَ في تَفاصيلِ حَياتي السّابِقَةِ. على أنّني أخْبَرْتُهُ بأنّني اشْتَغَلْتُ كَمُعَلِّمَةِ أطْفالٍ ثُمَّ تَرَكْتُ العَمَلَ فَجْأَةً حينَ ثارَتْ مُشْكِلَةٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ. وأنْصَتَ إليَّ الرَّجُلُ في عَطْفٍ واهْتِمامٍ، ثُمَّ وَعَدَ بأنْ يَبْحَثَ لي عن وَظيفَةٍ.

وقَضَيْتُ مع عائِلَةِ رِڤرْز بِضْعَةَ أسابيعَ في فَرَحٍ وسُرورٍ، واقْتَرَبْتُ من ديانا وماري كُلَّ الاقْتِرابِ. وفي نِهايَةِ تلك الأيّامِ السَّعيدَةِ ذَكَّرْتُ مستر سانت جون بوَعْدِهِ بالبَحْثِ لي عن عَمَلٍ، فقال:

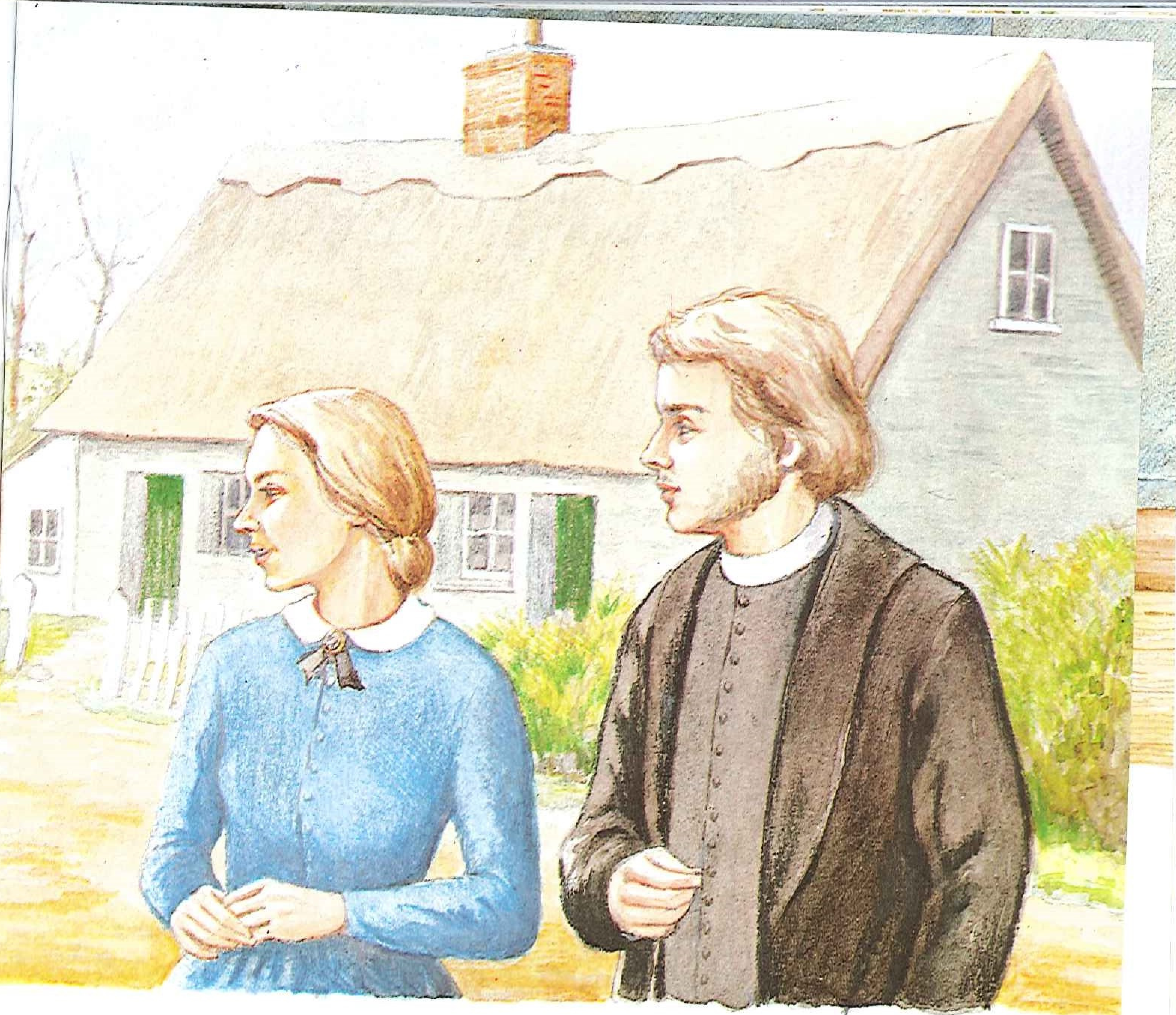
– «أنا لم أنْسَ هذا الأمْرَ على الإطْلاقِ، ولكنّ ديانا وماري قد تَعَلَّقَتا بكِ أشَدَّ التَّعَلُّقِ، ونَحْنُ لا نَرْغَبُ في أنْ تُعَجِّلي بالرَّحيلِ. على أنّني قد وَجَدْتُ وَظيفَةً لكِ بالفِعْلِ، ويُمْكِنُكِ اسْتِلامُها مَتى تَشائينَ.»

ومَضى الصَّديقُ يَشْرَحُ ليَ الأمرَ، فقالَ: «عِنْدَما أتَيْتُ إلى مورتون قَبْلَ عامَيْنِ، لم تَكُنْ بها مَدْرَسَةٌ لِلأطْفالِ الفُقَراءِ، فأنْشَأْتُ واحِدَةً لِلْبَنينَ. والآنَ، وبَعْدَ أنْ حَصَلْتُ على مَبْنًى آخَرَ لإقامَةِ مَدْرَسَةٍ لِلْبَناتِ، فإنَّني أرْغَبُ في تَعْيينِ مُعَلِّمَةٍ لهذه المَدْرَسَةِ الجَديدَةِ...»

وعَرَضَ عليَّ مستر سانت جون هذه الوَظيفَةَ، ثُمَّ أضافَ قائِلًا: «سَيَكونُ مُرَتَّبُكِ ثَلاثينَ جُنَيْهًا في العامِ، وسَوْفَ تُقيمينَ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ بَسيطِ الرِّياشِ بالقُرْبِ من مَبْنى المَدْرَسَةِ، كما سَوْفَ تُخَصَّصُ لِخِدْمَتِكِ فَتاةٌ من مُؤَسَّسَةِ رِعايَةِ الفُقَراءِ القَريبَةِ مِنَ المَدْرَسَةِ. وقد تَكَفَّلَتْ بِنَفَقاتِ المَنْزِلِ والخادِمِ الآنِسَةُ أوليڤر، ابْنَةُ مستر أوليڤر، صاحِبِ مَسْبَكِ المعادِنِ الشَّهيرِ، والرَّجُلِ الثَّرِيِّ الوَحيدِ في المِنْطَقَةِ.»

فَرِحْتُ فَرَحًا عَظيمًا، وأجَبْتُ: «أقْبَلُ هذا العَمَلَ بِكُلِّ سُرورٍ... سَوْفَ أُسافِرُ غَدًا لافْتِتاحِ المَدْرَسَةِ بَعْدَ أُسْبوعٍ.»

في الصَّباحِ التّالي رَحَلْتُ إلى مورتون كي أُعِدَّ المَدْرَسَةَ للاِفْتِتاحِ، كما سافَرَتْ ديانا وماري في اليَوْمِ الّذي يَليهِ لاسْتِئْنافِ عَمَلِهِما. وهكذا أغْلَقَ مستر سانت جون وخادِمَتُهُ حَنَّةَ بَيْتَ العائِلَةِ العَتيدَ القائِمَ عِنْدَ طَرَفِ المُسْتَنْقَعِ، وعادا إلى مَسْكَنِ راعي الكَنيسَةِ في مورتون.



كان مَنْزِلي الصَّغيرُ التّابِعُ لِلْمَدْرَسَةِ ذا أثاثٍ مُتَواضِعٍ ، غَيْرَ أنَّهُ كان مُريحًا إلى حَدٍّ كَبيرٍ . وكان يَتَكَوَّنُ من حُجْرَةٍ لِلْمَعيشَةِ في الدَّوْرِ السُّفْلِيِّ ، وأُخْرى لِلنَّوْمِ في الطابِقِ الَّذي يَعْلوهُ . والتَحَقَتْ بِالمَدْرَسَةِ عِشْرونَ تِلْميذَةً في اليَوْمِ الأَوَّلِ لِلدِّراسَةِ .

ومع وُثوقي التّامِّ بأنَّ هَجْري لمستر روتشستر وثورنفيلد كان قرارًا صائبًا حَكيمًا ، إلّا أنَّني لم أَسْتَطِعْ أنْ أدْفَعَ عن نَفْسي شُعورًا بِالتَّعاسَةِ والاكْتِئابِ ... كُنْتُ أُحِسُّ على نَحْوٍ ما بالهَوانِ والانْحِطاطِ .

في تلك اللَّحْظَةِ حَضَرَ مستر سانت جون رِفِرْز يَحْمِلُ هَدِيَّةً لَطيفَةً أَرْسَلَتْها لي أُخْتاهُ : وكانت عُلْبَةَ ألْوانٍ لِلرَّسْمِ وبِضْعَ فُرُشاتٍ لِلتَّلْوينِ . وبَيْنَما كُنّا نَتَحَدَّثُ ، جاءَتِ الآنِسَةُ روزامَنْد أوليفر : الشّابَّةُ الرَّقيقَةُ العَطوفُ المُتَكَفِّلَةُ بِنَفَقاتِ المَنْزِلِ والخادِمِ .

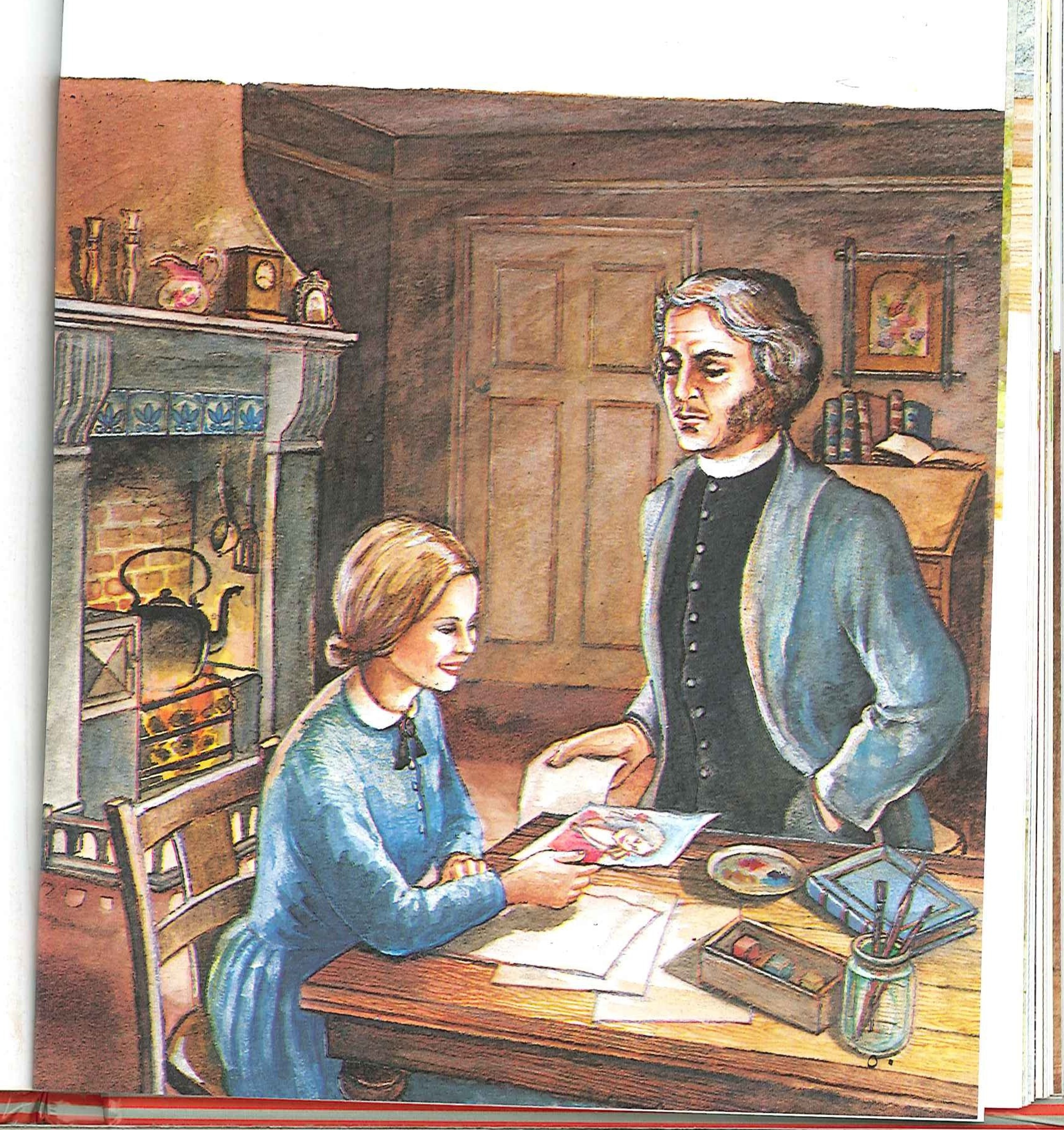


وبَدَتْ لي حينَئِذٍ فَتاةً ساحِرَةً جذّابَةً ، تُثَرْثِرُ في مَرَحٍ ، وتَسْلُكُ وِفْقَ طَبيعَتِها دونَ تَكَلُّفٍ . وقد أَبْدَتْ إعْجابَها بِعَمَلي يَوْمَئِذٍ في حَماسٍ يَنِمُّ عن إحْساسٍ صادِقٍ . غَيْرَ أنّني لاحَظْتُ أنَّ مستر سانت جون قد تَولّاهُ العُبوسُ فَجْأَةً ، ثُمَّ لم يَلْبَثْ أنِ انْتَحَلَ عُذْرًا لِيَسْتَأْذِنَ في الانْصِرافِ .

لَقيتُ بادِئَ الأَمْرِ صُعوبَةً في التَّفاهُمِ مع تِلْميذاتي ، فقد كُنّا نَتَحَدَّثُ بِلَهَجاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَضْلًا عَنِ اخْتِلافِ البيئاتِ والثَّقافاتِ . ولكنْ ما إنْ زادَتْ مَعْرِفَتي بِهِنَّ حَتّى وَجَدْتُ أنَّ بَعْضَهُنَّ يَسْتَطيعُ القِراءَةَ والكِتابَةَ إلى حَدٍّ ما ، فشَرَعْتُ في إلْقاءِ دُروسٍ عَليهِنَّ في مادَّتَي التّاريخِ والجُغْرافِيا ، وفي تَعْليمِهِنَّ أَشْغالَ الإِبْرَةِ . ونَما حُبُّهُنَّ لي ، كما نَمَت ثِقَتُهُنَّ بي كذلِكَ ، وسُرْعانَ ما أَخَذْنَ يُحْضِرْنَ والِديهِنَّ لِلتَّعَرُّفِ إليَّ . ولم يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى شَعَرْتُ بِأَنَّني قد أَصْبَحْتُ مَحْبوبَةً تَمامًا .

واعْتادَتْ روزامند أوليفر أنْ تَزورَني في أَوْقاتٍ مُتَقارِبَةٍ . كانت فَتاةً جَميلَةً مَرِحَةً – وإنْ شابَها شَيْءٌ مِنَ النَّزَقِ والغُرورِ – كما كانت كَريمَةً وسَخِيَّةً في العَطاءِ . وتَأَكَّدَ لي بِشَكْلٍ قاطِعٍ إعْجابُها بمستر سانت جون وسَعْيُها في التَّوَدُّدِ إليه ، وإنْ أَحْجَمَ – من ناحِيَتِهِ – عن مُسايَرَتِها في هذا المِضْمارِ .

بَيْنَما كُنْتُ أَتَحَدَّثُ إلى الرَّجُلِ ذاتَ يَوْمٍ ، تَجَرَّأْتُ على الإفْصاحِ عَمّا يَدورُ في خَلَدي من ظُنونٍ حَوْلَ حُبِّهِ لِلآنِسَةِ روزاموند واحْتِمالِ زَواجِهِ منها . لكنّي لم أَحْظَ منه بِجَوابٍ . ثمّ أَطْلَعْتُهُ على صورَةٍ رَسَمْتُها للآنِسَةِ روزاموند ، فنَظَرَ إليها بإمْعانٍ وبَدا كأنّما وَقَعَتْ عليه مُفاجَأَةٌ صاعِقَةٌ .



في اليَوْمِ التّالي اشْتَدَّ البَرْدُ وهَطَلَتْ أَمْطارٌ ثَلْجِيَّةٌ ، فَرَأَيْتُ مِنَ الأَنْسَبِ أنْ أَمْكُثَ إلى جِوارِ المِدْفَأَةِ ، وأَقْطَعَ المَساءَ في القِراءَةِ والرَّسْمِ . وفي تلك الأَثْناءِ فاجَأَني مستر سانت جون بِالزِّيارَةِ ، وكان يَبْدو مُتْعَبًا مَكْدودًا .

جَلَسَ بُرْهَةً صامِتًا ، ثمّ قال لي : « حَسَنًا ، جِئْتُ في هذا الوَقْتِ لأُفْضِيَ إليكِ بِأَشْياءَ تَهُمُّكِ ، يا جين . سَوْفَ أَقُصُّ عليكِ قِصَّةً غَريبَةً نَوْعًا ما : ذاتَ يَوْمٍ ، تَزَوَّجَ قَسٌّ بَسيطٌ ابْنَةَ رَجُلٍ غَنيٍّ من آلِ ريد . وعلى حينِ غِرَّةٍ ، ماتَ الزَّوْجانِ في رَيْعانِ الشَّبابِ بَعْدَ أنْ أَنْجَبا طِفْلَةً صَغيرَةً . وكان لتلك الطِّفْلَةِ خالٌ هو السَّيِّدُ ريد الابْنُ ، فأتى بها إلى بَيْتِهِ لِتَعيشَ مع زَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ . ولم يَلْبَثْ أن ماتَ الخالُ بعد سَنَواتٍ قَليلَةٍ ، فسارَعَتْ زَوْجَتُهُ – الّتي كانت تَمْقُتُ الفَتاةَ – بإرْسالِها إلى مَدْرَسَةٍ لوودُ الدّاخِلِيَّةِ . وفي حَوالي التّاسِعَةَ عَشْرَةَ من عُمْرِها ، غادَرَتِ المَدْرَسَةَ واشْتَغَلَتْ مُعَلِّمَةً لِلأَطْفالِ في بَيْتِ رَجُلٍ ثَرِيٍّ يُدْعَى إدوارد روتشستر .

صِحْتُ قائِلَةً في ذُهولٍ : « كيف عَرَفْتَ ذلِكَ ؟ »

أَجابَ الصَّديقُ : « إِنْتَظِري إلى أنْ أُتِمَّ هذه القِصَّةَ : ... وكان لهذه الفَتاةِ الّتي تُدْعَى جين إير عَمٌّ اسْمُهُ جون إير . ولقد كَلَّفَ هذا العَمُّ مُحامِيًا من لندن ، اسْمُه مستر برجز ، بِالبَحْثِ عن ابْنَةِ أَخيهِ . ولمّا كان العَمُّ – أيْ مستر جون إير – هو خالي في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، فقد طَلَبَ مِنّي مستر برجز أنْ أُعاوِنَهُ في البَحْثِ عن الفَتاةِ . وتَتَبَّعْنا أَخْبارَها إلى أنْ وَصَلْنا إلى قَصْرِ ثورنفيلد ، غَيْرَ أَنَّنا فَشِلْنا في العُثورِ عليها رَغْمَ ما بَذَلْناهُ من جَهْدٍ ، إذ إنَّها كانت قد غادَرَتِ القَصْرَ دونَ أنْ تَتْرُكَ أَيَّ إشارَةٍ تَنِمُّ عنِ الجِهَةِ الّتي قَصَدَتْ إليها . »

قلتُ في ذهول : « لكن كيفَ عَرَفْتَ أَنّي أنا جين إير ؟ »

أَجابَ بابْتِسامةٍ : « عَرَفْتُهُ حينَ قَرَأْتُ تَوْقيعَكِ على الصّورَةِ الّتي رَسَمْتِها للآنِسةِ روزامند » .

ثُمّ أَرْدَفَ قائِلًا : « إنّ هناك نَبأً هامًّا أُريدُ أنْ أُفْضِيَ الآن إليكِ به : هو أنّ عَمَّك ، مسترجون إير ، أَوْرَثَكِ ثَرْوَتَهُ كُلَّها التي تُقَدَّرُ بعِشْرينَ أَلْفَ جُنيهٍ . »

أَخْرَسَتْني المُفاجَأَةُ فَعَجِزْتُ عَنِ النُّطْقِ ، ثُمَّ أَخَذَتْ تَتَكَشَّفُ الحَقيقَةُ المُذْهِلَةُ أَمامي بِالتَّدْريجِ ، كما تَتَسَلَّلُ أَشِعَّةُ الفَجْرِ من عَتْمَةِ اللَّيْلِ البَهيمِ .



أَخيرًا قُلْتُ : « حَسَنًا ، هذا نَبَأٌ مُثيرٌ ! .. ولكنْ إذا كان عَمّي – جون إير – هو خالُكَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، إذًا فأُمُّكَ هي عَمَّتي بِالطَّبْعِ ، كما أنّ ديانا وماري وأنتَ أَبْناءُ عَمَّتي . سَنَتَقاسَمُ ثَرْوَةَ العَمِّ بَيْنَنا بِالتَّساوي ، لِيَحْصُلَ كُلٌّ مِنّا على خَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ . »

عَبَثًا حاوَلَ مستر سانت جون أنْ يَثْنِيَني عن عَزْمي ذاكَ ، وذَهَبَتْ كُلُّ مُحاوَلاتِهِ في هذا الشَّأْنِ أَدْراجَ الرِّياحِ . وقُلْتُ : « سَوْفَ أَسْتَمِرُّ في التَّدْريسِ إلى أنْ تَجِدَ من يَخْلُفُني في هذا المَكانِ ... على أنّنا سَوْفَ نَجْتَمِعُ مَعًا كعائِلَةٍ واحِدَةٍ في مَنْزِلِكَ القائِمِ إلى جِوارِ المُسْتَنْقَعِ ، لِقَضاءِ إجازاتِ الأَعْيادِ . »

قَبْلَ حُلولِ العيدِ بِعِدَّةِ أَيّامٍ ، كانت جَميعُ الإجْراءاتِ القانونِيَّةِ الخاصَّةِ بِتَرِكَةِ العَمِّ قد تَمَّتْ ، كما تَهَيَّأْتُ في نَفْسِ الوَقْتِ لِتَرْكِ المَدْرَسَةِ ، وبَعْدَ أنْ وَدَّعَتْني التِّلْميذاتُ وَداعًا حارًّا مُؤَثِّرًا يَنِمُّ عن شُكْرٍ وعِرْفانٍ بِالجَميلِ ، عُدْتُ ومعي حَنَّة إلى بَيْتِ آل رِفَرْز العَتيدِ . وكان البَيْتُ مَهْجورًا مُنْذُ عِدَّةِ شُهورٍ فَقَضَيْنا أُسْبوعًا في تَنْظيفِهِ وتَرْتيبِهِ قَبْلَ أنْ تَحْضُرَ ديانا وماري لِلاحْتِفالِ بِالعيدِ .

وحَضَرَتْ ديانا وماري فَعَمَّنا الفَرَحُ والسُّرورُ ، واجْتَمَعَ شَمْلُنا في البَيْتِ كعائِلَةٍ مُتَرابِطَةٍ سَعيدَةٍ . غَيْرَ أَنَّني لاحَظْتُ في ضيقٍ شَديدٍ أنّ مستر سانت جون أَضْحى قَلِقًا كَثيرَ الشُّرودِ ، ولم يَعُدْ يَهْتَمُّ بِمَنْزِلِهِ كذي قَبْلُ . ومِنْ عَجَبٍ أَنَّهُ أَخَذَ يُغْريني بِالاشْتِراكِ مَعَهُ في تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الهِنْدِيَّةِ ، ومُشارَكَتِهِ السَّيْرَ لِمَسافاتٍ طَويلَةٍ في العَراءِ .

فُوجِئْتُ بَعْد عِدَّةِ أَسابيعَ بِأَنّ روزامند أوليڤر ، على وَشْكِ الاقْتِرانِ بابْنِ رَجُلٍ من كِبارِ المُلّاكِ في الرّيفِ المُجاوِرِ لِبَلْدَتِها . واغْتَمَّتْ ديانا وماري لهذا النَّبأ إذ كانتا تَتَوَقَّعانِ أنْ يَطْلُبَ أَخوهُما يَدَها ، وأن يَثْنِيَهُ ذلِك عن فِكْرَةِ السَّفَرِ إلى الهِنْدِ .

وعلى عكْسِ أُخْتَيْهِ ، تَوَلّى مستر سانت جون ارْتِياحٌ شَديدٌ لهذا النّبأ ... ذلِكَ أنّ صِراعًا عَنيفًا كان يَدورُ في داخِلِهِ حَوْلَ التَّقَدُّمِ لِلزَّواجِ بالآنِسَةِ روزامند : أَمِنَ الصَّوابِ أنْ يُقْدِمَ على الزَّواجِ منها لِمُجَرَّدِ أنّها تَميلُ إليه ، أو لأنّها ثَرِيَّةٌ ؟

لكنّه اسْتَراحَ نَفْسًا بعد أنْ حُسِمَ هذا الصِّراعُ ... وقال لي وكأنّهُ يَنْفُضُ عن صَدْرِهِ عِبْئًا ثَقيلًا : « لقد حارَبْتُ مَعْرَكَتي ضِدَّ إغْراءِ العالَمِ ، يا جين ، وانْتَصَرْتُ . »

ذاتَ صَباحٍ صَرَّحَ لي بِحاجَتِهِ الماسَّةِ إلى زَوْجَةٍ تَصْحَبُهُ إلى بِلادِ الهِنْدِ، ثُمَّ فاجَأَني بِرَغْبَتِهِ في أنْ أكونَ أنا هذه الزَّوْجَةَ.

أكانَ ذلِكَ هو السَّبَبَ في مُحاوَلَةِ إقْناعي بِمُشارَكَتِهِ في تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الهِنْدِيَّةِ؟ على أنَّني أَجَبْتُهُ في أَسَفٍ عَميقٍ: «لا أَسْتَطيعُ ذلِكَ، يا مستر سانت جون، فأنا أُحِبُّكَ مِثْلَما تُحِبُّ فَتاةٌ أَخاها... ولكِنَّني – في الوَقْتِ نَفْسِهِ – أُكِنُّ لك كُلَّ تَقْديرٍ واحْتِرامٍ!»

غَيْرَ أنَّه رَفَضَ الاسْتِسْلامَ، وراحَ يُحاوِلُ إقْناعي بِشَتّى الوَسائِلِ. وكُنْتُ أَعْلَمُ أنْ لا أَمَلَ هُناكَ في أنْ أرى حبيبي إدوارد روتشستر مَرَّةً أُخْرى، لكِنَّني كُنْتُ واثِقَةً بِأنَّني لنْ أَنْساهُ. ووَسْطَ عَذاباتِ الحيرَةِ والشَّكِّ، قُلْتُ أَخيرًا لِصَديقي اللَّحوحِ: «قد أُفَكِّرُ في الذَّهابِ مَعَكَ إلى الهِنْدِ كزَميلَةٍ مُساعِدَةٍ في العَمَلِ، ولكنْ ليس كزَوْجَةٍ على الإطْلاقِ.»

غَيْرَ أنّ هذا الاِقْتِراحَ لم يَلْقَ قَبولًا من مستر سانت جون الّذي كان مُصِرًّا على أنْ أَصْحَبَهُ كَزَوْجَةٍ، وهكذا انْصَرَفَ عَنّي غاضِبًا.

مَرَّ اليَوْمُ التّالي دونَ أنْ يَتَحَدَّثَ إليَّ، وكَأنَّ رَفْضي الزَّواجَ منه سَبَبٌ كافٍ لأنْ يَزْوَرَّ عنّي في حَنَقٍ! وأَصْبَحْنا نَعيشُ كغَريبَيْنِ تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ، يَلُفُّنا جَوٌّ مِنَ الحيطَةِ والحَذَرِ. وسُرْعانَ ما أَحَسَّتْ ديانا وماري بأنّ شَيْئًا ما قد حَدَثَ بَيْني وبَيْنَ مستر سانت جون، فَرَأَيْتُ مِنَ الأَفْضَلِ أنْ أَعْتَرِفَ لَهُما بِكُلِّ شَيْءٍ. وأَخْبَرَتْني الأُخْتانِ أنَّهما كانتا تُؤَمِّلانِ في أنْ أكونَ زَوْجَةً لِأَخيهِما، غَيْرَ أنَّهما شَجَبَتا فِكْرَةَ ذَهابي معه إلى الهِنْدِ، وقالَتا إنَّها مَحْضُ جُنونٍ.

وأَرْدَفَتْ ديانا قائِلَةً: «أنتِ رَقيقَةٌ مُرْهَفَةٌ، يا جين، ولا تَسْتَطيعينَ الحَياةَ في جَوِّ الهِنْدِ الحارِّ المُتَّقِدِ، ولكنْ إذا ما تَزَوَّجْتِ من سانت جون فلَعَلَّكِ تَسْتَطيعينَ إقْناعَهُ بِالبَقاءِ هُنا في إنجلترا.»

فَأَجَبْتُها على الفَوْرِ: «كَلّا، يا عزيزتي ديانا، فَقَدِ اسْتَقَرَّ عَزْمُهُ على الرَّحيلِ، كما أنّني لا أَسْتَطيعُ الزَّواجَ منه على الإطْلاقِ، إذ لم أُحِسَّ نَحْوَهُ بِعاطِفَةِ الحُبِّ الخاصَّةِ الّتي تَجْعَلُني راغِبَةً في أنْ أكونَ زَوْجَةً له.»

كان مستر سانت جون على وَشْكِ أنْ يُسافِرَ إلى كمبردج في مهمَّةٍ تَسْتَغْرِقُ أُسْبوعًا. وفي مَساءِ اليَوْمِ السّابِقِ على السَّفَرِ، بَدا رائِقَ المِزاجِ، وأَخَذَ يُحَدِّثُني في رِقَّةٍ ولُطْفٍ، مِمّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِالذَّنْبِ، وبِأنّني كُنْتُ قاسِيَةً إزاءَهُ فيما مَضى أَكْثَرَ مِمّا يَجِبُ.

وفي اجْتِماعِنا العائِليِّ المُعْتادِ في المَساءِ، أَخَذَ يَقْرَأُ بِصَوْتِهِ المُؤَثِّرِ الأَخّاذِ فَقَراتٍ تَصِفُ حالَ الفُقَراءِ والمُحْتاجينَ مِمَّنْ لا عائِدَ لهم ولا مُعين. ثُمَّ أَعْقَبَ ذلِكَ بِعِظَةٍ بالِغَةِ القُوَّةِ، وقادِرَةٍ – بِسُمُوِّها وبَساطَتِها – على النَّفاذِ إلى أَعْماقِ القَلْبِ. وفي خِتامِ تلك العِظَةِ الشّائِقَةِ، نَظَرَ إليَّ الرَّجُلُ طَويلًا، ثُمَّ قالَ:

– أَشْعُرُ الآنَ أنّ اللهَ يَدْعوكِ، يا جين، لِمُعاوَنَتي في خِدْمَةِ الفُقَراءِ والمُحْتاجينَ في الهِنْدِ، فَهَلْ تُصِمّينَ أُذُنَيْكِ عن سَماعِ هذه الدَّعْوَةِ؟

وبَيْنَما هو يَتَفَوَّهُ بهذه الكَلِماتِ، وَضَعَ يَدَهُ بِرِفْقٍ فَوْقَ رَأْسي. وأَحْسَسْتُ بِلَمْسَةٍ عُلْوِيَّةٍ ساحِرَةٍ تَهُزُّني مِنَ الأَعْماقِ، فارْتَعَدْتُ مَهابَةً وخُشوعًا، وأَحْسَسْتُ أنَّ مُقاوَمَتي له تَنْهارُ. ثمّ لم تَلْبَثْ مَخاوِفي أنِ انْقَشَعَتْ، وبَدا زَواجي منه – الّذي كان مُسْتَحيلًا مُنْذُ أيّامٍ – أَمْرًا مُحْتَمَلَ الحُدوثِ...



كانت الغُرْفَةُ المُعْتِمَةُ مَليئَةً بِالخَيالاتِ والرُّؤى حينَ جَلَسْتُ فيها وسانت جون مُنْفَرِدَيْنِ ، وأَخَذَ قَلْبي يَخْفِقُ بِشِدَّةٍ . وفَجْأَةً كادَ نَبْضي أنْ يَتَوَقَّف ، وسَرَتْ في جَسَدي رِعْشَةٌ هائِلَةٌ . ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا يَهْتِفُ باسْمي مُنادِيًا : « جين ! ... جين ! ... جين ! »

تَلَفَّتُّ حَوْلي فلم أَرَ أَحَدًا ، فَصِحْتُ في أَنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ : « يا إلهي ! ... ما هذا الصَّوْتُ ؟ ... ما هذا ؟ »

كان صَوْتًا حَبيبًا أَذْكُرُهُ جَيِّدًا ... كان هو صَوْتَ إدوارد روتشستر قادِمًا من مَكانٍ لا أَدْريهِ ، وكان ذا نَبْرَةٍ غَريبَةٍ ، مُخيفَةٍ ، مُسْتَميتَةٍ ، مُتَأَلِّمَةٍ ، وكأنَّ صاحِبَهُ غارِقٌ في كَرْبٍ عَظيمٍ .

رَدَّدْتُ قائِلَةً بِصَوْتٍ عالٍ : « إنّي قادِمَةٌ ... إنّي قادِمَةٌ ... اِنْتَظِرْني ! ... أوه ، سَوْفَ آتي سَريعًا ، يا حَبيبي ! »

وانْدَفَعْتُ إلى الحَديقَةِ الخاوِيَةِ المُظْلِمَةِ . وأَخَذْتُ أَصيحُ قائِلَةً : « أين أنتَ ؟ أوه ، أين أنتَ ؟ »

فلم أَسْمَعْ إلّا صَدى الصَّوْتِ تُرَدِّدُهُ التِّلالُ القابِعَةُ خَلْفَ الوادي الصَّغيرِ : « أين أنتَ ؟ ... أوه ، أين أنتَ ؟ »

وأَرْهَفْتُ السَّمْعَ ... كانتِ الرِّياحُ تَنوحُ فَوْقَ أَشْجارِ التَّنّوبِ وتُطْلِقُ صَفيرَها الخافِتَ الحَزينَ ، وكأنَّها بذلِكَ تُبَدِّدُ وَحْشَةَ اللَّيْلِ البَهيمِ فَوْقَ تلك الأَراضي الساكِنَةِ المُقْفِرَةِ .

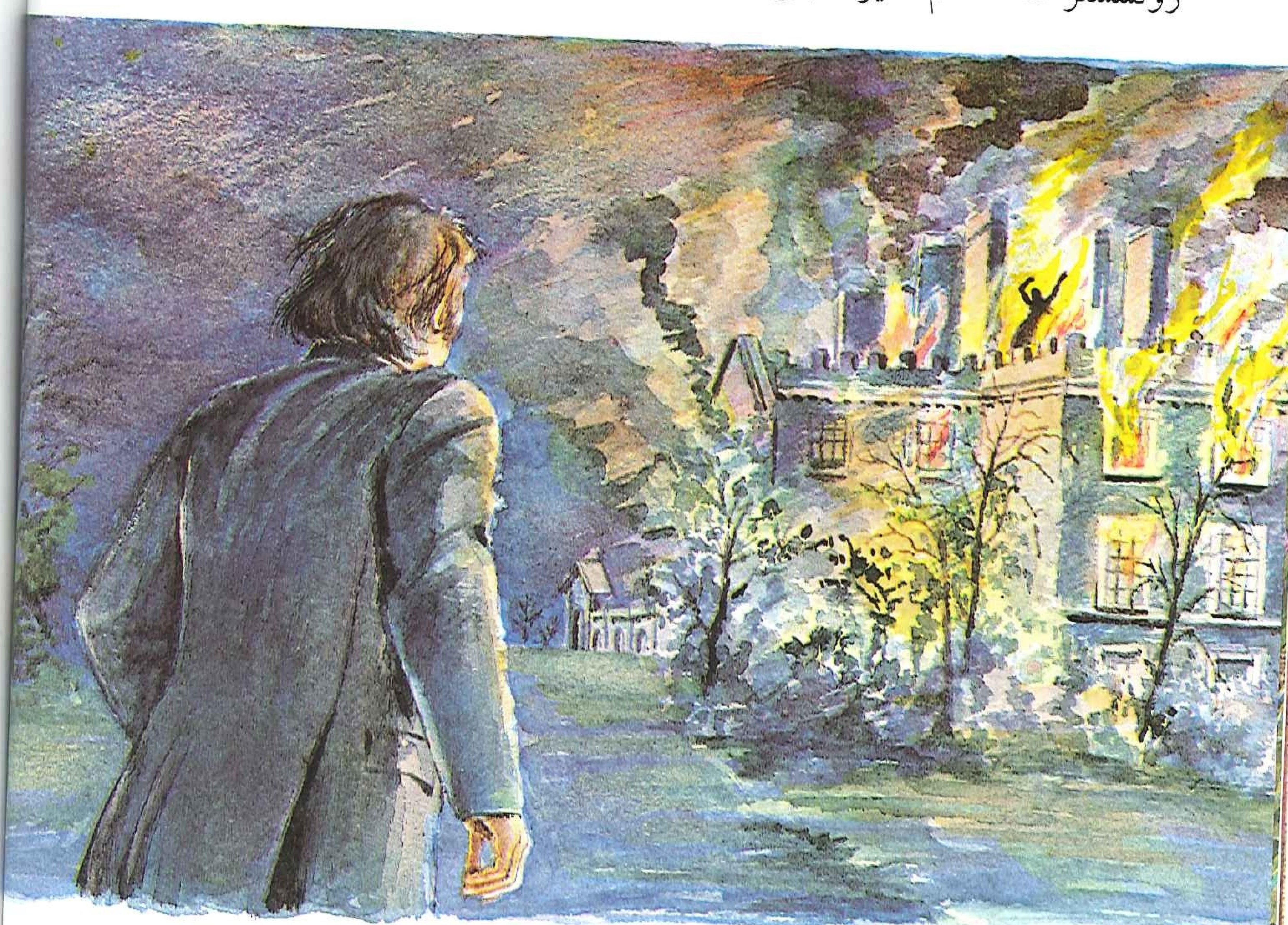
وجَرَيْتُ إلى داخِلِ البَيْتِ ، ورَأَيْتُ مستر سانت جون في مُواجَهَتي ، فَطَلَبْتُ إليه أنْ يَتْرُكَني وشَأْني . وفَعَلَ الرَّجُلُ وقد تَمَلَّكَتْهُ دَهْشَةٌ شَديدَةٌ . ثُمَّ انْدَفَعْتُ إلى حُجْرَتي ، ورَكَعْتُ على قَدَمَيَّ ، وسَكَبْتُ نَفْسي في صَلاةِ شُكْرٍ حارَّةٍ لِلْعَلِيِّ القَديرِ . كُنْتُ على يَقينٍ من أنَّ صَوْتَ إدوارد هو الَّذي ناداني مُنْذُ لَحَظاتٍ لأَذْهَبَ إلى ثورنفيلد ، وقد عَزَمْتُ على تَلْبِيَةِ النِّداءِ .. لقد كَشَفَتْ لِيَ روحي أَخيرًا عن مَقْصِدِها ، وأَعْلَمَتْني بما يَجِبُ أنْ أَفْعَلَهُ ... واسْتَلْقَيْتُ في فِراشي راضِيَةَ النَّفْسِ ، مُسْتَقِرَّةَ الفِكْرِ ، هانِئَةَ الوِجْدانِ . وسُرْعانَ ما اسْتَغْرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ .



كانت رِحلَةُ العَوْدَةِ إلى ثورنفيلد طَويلَةً ومُرْهِقَةً ، ولكن ما إنِ اقْتَرَبْتُ من نِهايَتِها حَتّى غادَرْتُ العَرَبَةَ عِنْدَ أَقْرَبِ خانٍ ، فُنْدُقٍ صَغيرٍ ، حَيْثُ تَرَكْتُ حَقيبَةَ سَفَري . ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ الرِّحْلَةَ سَيْرًا على قَدَمَيَّ لِمَسافَةِ ميلَيْنِ أو أَكْثَرَ عَبْرَ الحُقولِ .

لَكَمْ كانَتِ الشُّجَيْراتُ المُحيطَةُ بالمَكانِ نَضِرَةً ومُزْهِرَةً ، ولَكَمْ بَدا المَكانُ مُخْتَلِفًا عن مورْتون الكَئيبَةِ الجَدْباءِ ! وعَبَرْتُ المُروجَ الخَضْراءَ الّتي طالَما سِرْتُ على أَرْضِها ، وأَتَيْتُ أخيرًا إلى الغابَةِ الصَّغيرَةِ ، ثُمَّ البُسْتانِ . ووَقَفْتُ خَلْفَ شُجَيْرَةٍ لأَرْقُبَ القَصْرَ الّذي طالَ حَنيني إليه . ولكنْ يا لَهَوْلِ ما رَأَيْتُ ! ... لم يَكُنْ هُناكَ قَصْرٌ على الإطْلاقِ ، بل مُجَرَّدُ أَطْلالٍ سَوْداءَ ... لا سَطْحَ ، ولا شُرُفاتٍ ، ولا مَداخِلَ ... لَقَدِ اسْتَحالَ كُلُّ شَيْءٍ إلى رُكامٍ !

كِدْتُ أُجَنُّ من هَوْلِ الصَّدْمَةِ ، وهُرِعْتُ عائِدَةً إلى الخانِ ، فقالَ لي صاحِبُهُ : « إنّ زَوْجَةَ السيِّد روتشستر المَخْبولَةَ قد أَشْعَلَتِ النّارَ في القَصْرِ . وإنّ السَّيِّدَ روتشستر قد اقْتَحَمَ النّيرانَ إلى أنْ تَمَكَّنَ من إنْقاذِ الخَدَمِ ومسز فيرفاكس . »



ثُمَّ اسْتَأْنَفَ صاحِبُ الخانِ حَديثَهُ قائِلًا : « وحاول مستر روتشستر بعد ذلك أنْ يَصْعَدَ في ضَوْءِ اللَّهَبِ المُتَأَجِّجِ إلى سَطْحِ القَصْرِ لإنْقاذِ المَرْأَةِ المَجْنونَةِ الّتي كانت واقِفَةً تَصْرُخُ هُناكَ ، ولكنْ سُرْعانَ ما أَلْقَتِ المَرْأَةُ بِنَفْسِها مِن عَلُ فلاقَتْ حَتْفَها . ولَمْ يَلْبَثِ السَّطْحُ أن تَهاوى فَوْقَ رَأْسِ الرَّجُلِ أَثْناءَ عَوْدَتِهِ إلى أَسْفَل . وتَطَوَّعَ شُهودُ الحادِثِ إلى نَجْدَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ المَوْتُ ، غَيْرَ أنّ إحْدى يَدَيْهِ كانت قَدِ احْتَرَقَتْ تَمامًا ، كما فَقَدَتْ كِلْتا عَيْنَيْهِ الإبْصارَ . وَهُوَ الآنَ يَعيشُ في رِعايَةِ بَعْضِ الخَدَمِ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ في عِزْبَةٍ ، على مَقْرُبَةٍ من هذا الخانِ . » وما إنْ فَرَغَ الرَّجُلُ من قِصَّتِهِ حَتّى اسْتَأْجَرْتُ عَرَبَتَهُ الصَّغيرَةَ لِتَحْمِلَني إلى العِزْبَةِ .

كان المَنْزِلُ قَديمًا مُتَهالِكًا ، وكان يَمْلِكُهُ والِدُ مستر روتشستر الّذي اشْتَرى العِزْبَةَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، غَيْرَ أنّ العائِلَةَ لم تُقِمْ فيه على الإطْلاقِ . ووَصَلْتُ أخيرًا إلى المَنْزِلِ . وتَوَقَّفْتُ على بُعْدِ خُطُواتٍ منه ، وأَخَذْتُ أَتَطَلَّعُ إليه ، فرَأَيْتُ – لِفَرْحَتي الغامِرَةِ – حَبيبي إدوارد يَخْرُجُ مِنَ البابِ الأمامِيِّ ! ... كان يَسيرُ بِبُطْءٍ ، مُتَحَسِّسًا طَريقَهُ بِيَدِهِ اليُمْنى ، بَيْنَما دُسَّتِ اليُسْرى في جَيْبِ مِعْطَفِهِ .

وبَعْدَ بِضْعِ خُطُواتٍ مُتَرَدِّدَةٍ تَوَقَّفَ في صَمْتٍ . ثُمّ أَتى الخادِمُ لِيَعودَ به إلى الدّاخِلِ . وتَلَبَّثْتُ بِضْعَ دَقائِقَ ، ثُمّ قَرَعْتُ البابَ . وفَتَحَتْهُ فَتاةٌ عَرَفْتُها في الحالِ ... كانت هي ماري الخادِمَةَ في قَصْرِ ثورنفيلد سابِقًا .

قُلْتُ لها بِهُدوءٍ ، وأنا لا أَزالُ واقِفَةً بالبابِ : « كيف حالُكِ ، يا ماري ؟ »

أَذْهَلَتْها المُفاجَأَةُ . ثمّ لم تَلْبَثْ أنْ صاحَتْ قائِلَةً : « رَبّاه ! .. أَحَقًّا أنتِ هي الآنِسَةُ جين ؟ ... تَفَضَّلي بالدُّخولِ ! »

وتَبِعْتُها إلى حُجْرَةِ المَطْبَخِ ، وطَلَبْتُ إليها أن تُعِدَّ لي غُرْفَةً خاصَّةً . وفي تلك اللَّحْظَةِ قُرِعَ جَرَسُ الرَّدْهَةِ ، فأَتَتْ ماري بِبَعْضِ الشُّموعِ ووَضَعَتْها على طَبَقٍ كَبيرٍ ، وإلى جِوارِها كوبٌ مِنَ الماءِ . بادَرْتُها بالسُّؤالِ : « أَهذا ما دَقَّ الجَرَسَ في طَلَبِهِ ؟ »

– أَجَلْ . إنّهُ يَطْلُبُ – دائِمًا – شُموعًا عِنْدَ الغَسَقِ ، بِرَغْمِ أَنَّهُ كَفيفٌ لا يُبْصِرُ !

– حَسَنًا ، يا ماري ، دَعيني أَحْمِلُ له الماءَ والشُّموعَ ، بَدَلًا منكِ ، هذه المَرَّةَ .

وارْتعَشَتْ يَدايَ ، وأنا أسيرُ بِالطَّبَقِ الّذي ثُبِّتَتْ عليه الشُّموعُ . وكانت نيرانُ المِدْفَأَةِ خابِيَةً في الرَّدْهَةِ ، كما بَدَتِ الرَّدْهَةُ كَئيبَةً وموحِشَةً . وتَقَدَّمْتُ نَحْوَ مستر روتشستر – وكانَ مُسْتَنِدًا كعادَتِهِ دائِمًا إلى الرَّفِّ الّذي يَعْلو المِدْفَأَةَ – فأَلْفَيْتُهُ ما زالَ مَتينَ البُنْيانِ ، فاحِمَ الشَّعْرِ ، وإنْ كانتْ مَلامِحُهُ تَنْطِقُ بالكآبَةِ والحُزْنِ . وكان پيلوت ، كَلْبُهُ المُخْلِصُ ، هُناكَ . وعَرَفَني في الحالِ ، فأَخَذَ يَتَقافَزُ حَوالَيَّ . وهَمَسْتُ قائِلَةً له : « اِجْلِسْ ، يا پيلوت . »

اسْتَدارَ مستر روتشستر نَحْوي قائِلًا : « أَعْطيني الماءَ ، يا ماري . »

فناوَلْتُهُ الكوبَ دونَ أن أَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ ، ولكنَّ پيلوت تَبِعَني وَهُوَ يَعْوي فَرِحًا .

« اِجْلِس ، يا پيلوت ، اِجلس » ، قُلْتُ مَرَّةً أُخرى .

فوَضَعَ مستر روتشستر الكوبَ بِعِنايَةٍ فَوْقَ المِنْضَدَةِ ، ثُمَّ قالَ :

– ماري ! ... إنَّكِ أنتِ ، أَليس كذلِكَ ؟

أَجَبْتُهُ بِهُدوءٍ : « كَلّا ، ماري في غُرْفَةِ المَطْبَخِ . »

فَهَتَفَ في شَيْءٍ مِنَ الانْفِعالِ : « حَسَنًا ، مَنْ تكونينَ إذًا ؟ ... تَكَلَّمي .. مَنْ أنتِ ؟ »

قُلْت : « پيلوت يَعْرِفُني ، يا سَيِّدي . »

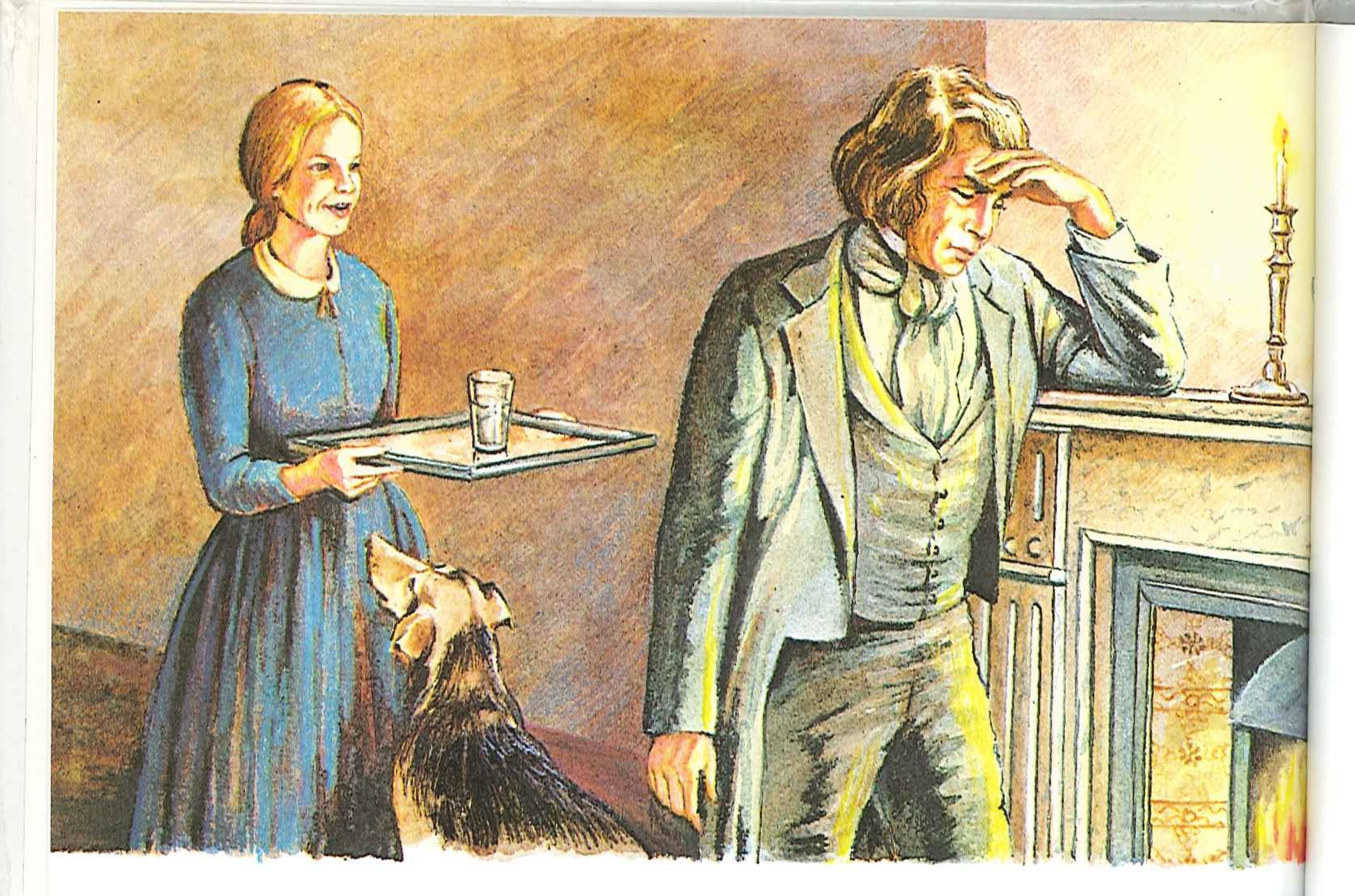
صاحَ قائِلًا ، وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ إلى الأَمامِ : « هذا حُلُمٌ ! .. إنّهُ حُلُمٌ .. »

أَجَبْتُ ، وأنا أُمْسِكُ بِيَدِهِ : « إنّهُ ليس حُلُمًا ، يا سَيِّدي ، بل حَقيقَةٌ واقِعَةٌ . »

فَلَفَّ ذِراعَهُ حَوْلَ كَتِفَيَّ ... وخَصْري ، ثُمَّ صاحَ : « هذه هَيْئَةُ جين ! .. وهذا صَوْتُها كذلِكَ ! ... جين إير ! ... حَبيبَتي جين .. ها قد عُدْتِ أخيرًا ! »

قُلْتُ في فَرَحٍ عَظيمٍ : « أَجَلْ ، يا إدوارد ، لقد عُدْتُ ... عُدْتُ خِصّيصًا من أَجْلِكَ . »

ولا بُدَّ أنَّ صَوْتِيَ المُتَهَدِّجَ ، المُفْعَمَ بالعاطِفَةِ ، قد كَشَفَ له حِينَئِذٍ بِوُضوحٍ عن صِدْقِ مَشاعِري ، وشِدَّةِ رَغْبَتي في البَقاءِ إلى جِوارِهِ ، ولكِنَّهُ لم يَلْبَثْ أن صاحَ قائِلًا :



– كَلّا ، يا جين ، كَلّا ... ليس مِنَ العَدْلِ أن تُكَرِّسَ امْرَأَةٌ شابَّةٌ حَياتَها لِرَجُلٍ أَعْمى !

زادَني تَعَلُّقًا به إيثارُهُ لي على نَفْسِهِ . وبَذَلْتُ جَهْدًا كَبيرًا لإقْناعِهِ بأنّني ما زِلْتُ أُحِبُّهُ بِشِدَّةٍ ، ولا أرْغَبُ من دُنْيايَ أَكْثَرَ من أنْ أُسْعِدَهُ وأَسْعَدَ بِهِ .

في اليَوْمِ التّالي ، عِنْدَما رأَيْتُهُ مُعَوَّقًا هكذا ، سالَتْ من عَيْنَيَّ الدُّموعُ ، ولكِنَّني عَوَّلْتُ على أنْ أَتَظاهَرَ بالمَرَحِ لأَرْفَعَ من روحِهِ المَعْنَوِيَّةِ بِقَدَرِ الإمْكانِ . وتَحَدَّثْنا لأَيّامٍ كَثيرَةٍ معًا . وأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ ما حَدَثَ لي بَعْدَ أنْ غادَرْتُ قَصْرَ ثورنفيلد .

تَزَوَّجْنا بَعْدَئِذٍ في هُدوءٍ . وكَتَبْتُ خِطابًا لابْنَتَيْ عَمَّتي – ديانا وماري – وأَخْبَرْتُهُما بهذا الزَّواجِ ، فبارَكَتاهُ بِكُلِّ رِضاءٍ وسُرورٍ ، وجاءَتا معًا فَرِحَتَيْنِ لِلتَّهْنِئَةِ . وقد تَزَوَّجَت ابْنَتا عَمَّتي بعد ذلِكَ بِوَقْتٍ قَصيرٍ . وهما تَزورانِنا الآنَ كَثيرًا مع زَوْجَيْهِما وأَطْفالِهِما . أمّا أَخوهُما ، سانت جون ، فقد كَتَبَ لي مُهَنِّئًا مِنَ الهِنْدِ ، بَعْدَ زَواجي بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ . وَهُوَ يُرْسِلُ لي خِطاباتٍ بَيْنَ حينٍ وآخَرَ بِأَخْبارِهِ في العَمَلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَذْكُرُ إدوارد بِقَليلٍ أو كَثيرٍ .

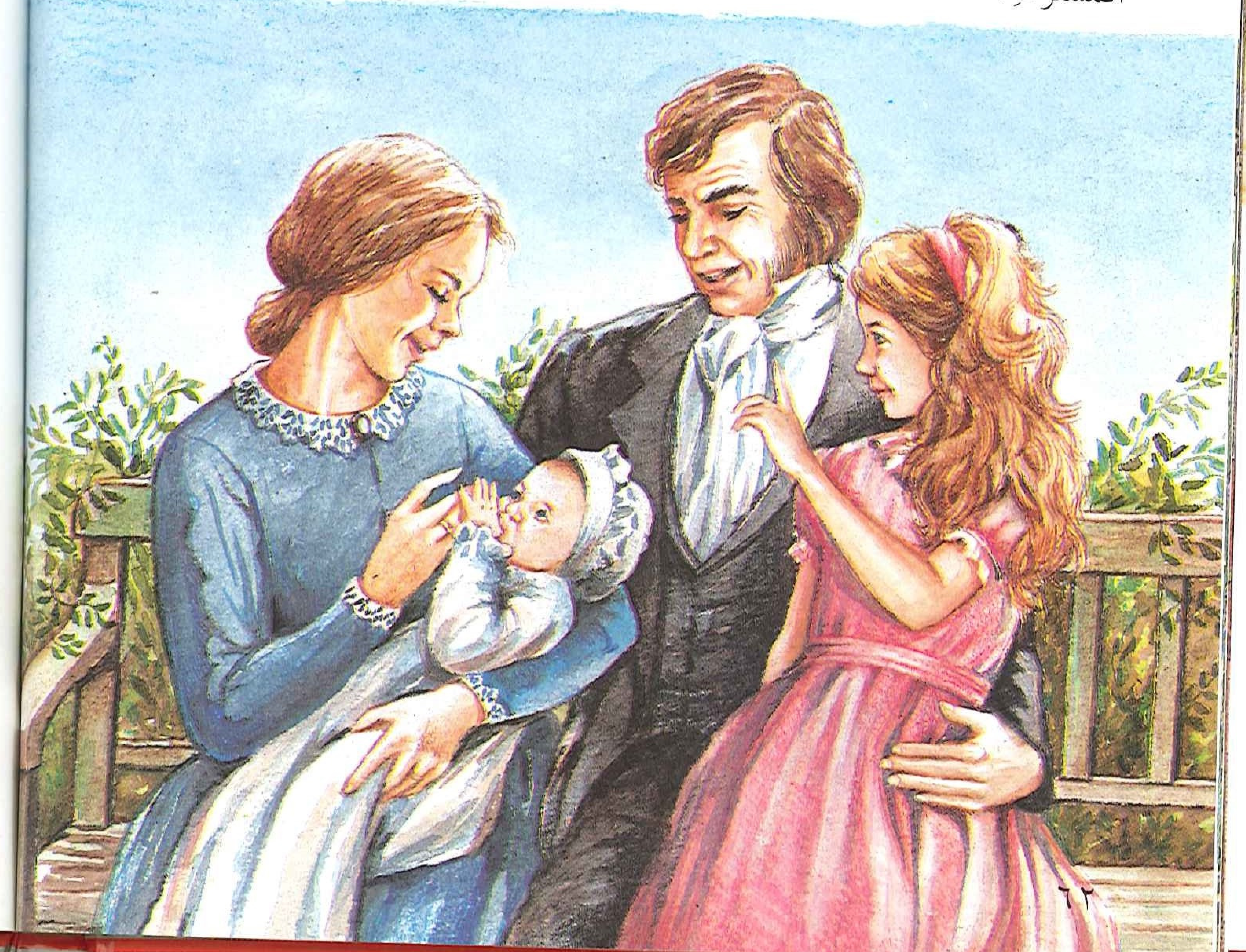
أَرْسَلْنا أديل إلى مَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ قَريبَةٍ . ويُسْعِدُني أنْ أقولَ إنّ الفَتاةَ قَدِ ارْتاحَتْ إلى هذه المَدْرَسَةِ ، وتَقَدَّمَتْ في الدِّراسَةِ تَقَدُّمًا كَبيرًا .

وظَلَّ إدوارد فاقِدًا لِلْبَصَرِ لِمُدَّةِ عامَيْنِ ، ثُمّ فاجَأَني ذاتَ يَوْمٍ بِالسُّؤالِ : « هل تَلْبَسينَ ثَوْبًا أَزْرَقَ ذا حِلْيَةٍ لامِعَةٍ حَوْلَ الرَّقَبَةِ ، يا جين ؟ »

صِحْتُ في فَرَحٍ بالِغٍ : « بَلَى ... بَلَى ، يا إدوارد ! »

أَخْبَرَني عِنْدَئِذٍ أَنّ إحدى عَيْنَيْهِ قد أخَذَتْ تَعودُ للإبْصارِ بالتَّدْريجِ مُنْذُ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ ! وبِمُساعَدَةِ طَبيبٍ كَبيرٍ لِلْعُيونِ في لندن ، أَمْكَنَ لإدوارد - خِلالَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ - أنْ يَسْتَعيدَ إبْصارَ هذه العَيْنِ تمامًا . وكَمْ كانَتْ سَعادَتي بعد ذلِكَ حين رَأَيْتُهُ يَتَفَرَّسُ في عَيْنَيْ طِفْلِهِ الأوّلِ اللّتَيْنِ تُشْبِهانِ عَيْنَيْ أبيهِ السَّوْداوَيْنِ اللّامِعَتَيْنِ !

وبَعْدُ هل لِلسَّعادَةِ الزَّوْجِيَّةِ الحَقَّةِ من نِهايَةٍ ؟ ... لا أَظُنُّ ، فنَحْنُ لا نَكُفُّ كُلَّ يَوْمٍ عن تَقْديمِ الشُّكْرِ لِلْعِنايَةِ الإلهِيَّةِ التي جَمَعَتْنا مَعًا في هذه الحَياةِ الهانِئَةِ المُشْتَرَكَةِ .





شارلوت برونتي

وُلِدَتْ شارلوت برونتي عام ١٨١٦ في يوركشاير ، وكان تَرْتيبُها الثّالِثَةَ بَيْنَ سِتَّةِ أَبْناءٍ : خَمْسٌ مِنَ الإناثِ ووَلَدٌ . وكان أبوها - باتريك برونتي - قسّيسًا إيرلَنْدِيًّا يَرْعى كَنيسَةً في جُزْءٍ وَعِرٍ مُتَطَرِّفٍ من يوركشاير ، أمّا أُمُّها فكانت سَيِّدَةً من كورنوال . وفي عام ١٨٢٠ تُوُفِّيَتِ الأُمُّ ، وانْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ بعد فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ من وفاتِها إلى هاورث وكانت بَلْدَةً صَغيرَةً تَقَعُ في مِنْطَقَةٍ من المُسْتَنْقَعاتِ تَعْلو سُفوحَ التِّلالِ . وتَسَلَّمَ القَسُّ الجَديدُ عَمَلَهُ في تلك القَرْيَةِ ، وكان المَنْزِلُ المُخَصَّصُ له مُريحًا ، غَيْرَ أنَّهُ كان مُعْتِمًا ويُطِلُّ على مَقْبَرَةِ البَلْدَةِ . ولمّا بَلَغَتْ شارلوت الثّامِنَةَ من عُمْرِها ، غادَرَتِ البَيْتَ مع أُخْتِها الأَصْغَرِ إميلي لِتَلْتَحِقا بمَدْرَسَةِ جِسْر كوان . وكانَتِ الحَياةُ في تلك المَدْرَسَةِ شَديدَةَ القَسْوَةِ ، ولمّا ماتَتْ أُخْتا شارلوت - اللّتانِ تَكْبُرانِها - بداءِ الدَّرَنِ ، عادَتْ شارلوت وإميلي إلى البَيْتِ ... وكانت تلك هي المَدْرَسَةَ الّتي رَسَمَتْ لها شارلوت صورَةً قاتِمَةً كَئيبَةً في روايَةِ جين إير .

مُنْذُ ذلِكَ الحينِ ، تُرِكَ الأَبْناءُ الأَرْبَعَةُ الباقونَ : شارلوت وإميلي وبرانويل وآن لِقَدَرِهِمْ يُوَجِّهونَ حَياتَهُمْ كَيْفما يَشاءونَ - وكانت شارلوت أَكْبَرَهُمْ سِنًّا . وهكذا أَخَذوا يَذْرَعونَ الأَرْضَ الفَسيحَةَ الموحِشَةَ بِالقُرْبِ من مَنْزِلِهِمْ جَيْئَةً وذَهابًا ، ويُنْشِئونَ عليها مَمالِكَ من نَسْجِ الخَيالِ ، ثُمّ يُسَطِّرونَ الرِّواياتِ المفَصَّلَةَ عن أُناسٍ يَقْطُنونَها . وكان لِتِلْكَ المُسْتَنْقَعاتِ المُتَرامِيَةِ أَثَرٌ عَميقٌ في خَيالِ ووِجْدانِ الإِخْوَةِ برونتي جَميعًا ، وقد تَبَدّى ذلِكَ الأَثَرُ جَلِيًّا في كِتاباتِهِم .

وعِنْدَما بَلَغَتْ شارلوت مَبْلَغَ الشَّبابِ ، اخْتارَتِ العَمَلَ كمُرَبِّيَةِ أَطْفالٍ ، بَيْدَ أَنَّها وَجَدَتِ الحَياةَ شاقَّةً جِدًّا آنَذاكَ ، تَسْتَنْفِرُ منها دَواعِيَ الصَّلابَةِ وإرادَةِ الصُّمودِ . ولاحَتْ حِيْنَئِذٍ للأَخَواتِ الثَّلاثِ فِكْرَةُ افْتِتاحِ مَدْرَسَةٍ خاصَّةٍ بِهِنَّ ، فذَهَبَتْ شارلوت وإميلي إلى بروكْسِل لِتَعْمَلا مُدَرِّسَتَيْنِ هُناكَ وتُنَمِّيا مهارَتَهما في اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ . ولكنَّ شارلوت ما لَبِثَتْ أنْ واجَهَتِ التَّعاسَةَ في تِلْكَ المَدينَةِ حينَ وَقَعَتْ في حُبِّ زَوْجِ مَخْدومَتِها .

ولِسُوءِ الحَظِّ ، فإنّ مَدْرَسَةَ الأَخَواتِ برونتي قد انْتَهَتْ إلى لا شَيْءٍ . غَيْرَ أَنَّهُنَّ دَأَبْنَ على الكِتابَةِ ، ونَجَحْنَ في نَشْرِ مَجْموعَةٍ من أَشْعارِهِنَّ . وفي عام ١٨٤٦ قُبِلَتْ بَعْضُ رِواياتِ إميلي وآن لِلنَّشْرِ . ولكنّ شارلوت اضْطُرَّتْ إلى الانْتِظارِ عامًا آخَرَ قَبْلَ أنْ تُنْشَرَ رائِعَتُها جين إير لِتُلاقِيَ نَجاحًا مُنْقَطِعَ النَّظيرِ .

أَعْقَبَ ذلِكَ الفَوْزَ الباهِرَ عامانِ مِنَ الأَسى والحُزْنِ : فَلَقَدْ ماتَ برانويل وإميلي وآن جَميعًا بِداءِ الدَّرَنِ . واسْتَمَرَّتْ شارلوت في تَأْليفِ وَنَشْرِ الرِّواياتِ ، وأَمْسَتْ ذائِعَةَ الصّيتِ في الدَّوائِرِ الأَدَبِيَّةِ في العَصْرِ الفِكْتوريِّ ، القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ . وفي عام ١٨٥٤ تَزَوَّجَتْ شارلوت من نيكولاس بل - راعي الأَبْرَشِيَّةِ - ولكِنَّها ماتَتْ بعد زِفافِها بِشُهورٍ قَلائِلَ ، وكانتْ في الثّامِنَةِ والثَّلاثينَ مِنَ العُمْرِ .